الدراية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

فن المقال بين الأصالة والتطور

" رؤية نقدية "

د / محمد محمد عبد الله حسن سلام
مدرس الأدب والنقد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
(بنات دمنهور)

مقدمـــــــــــة

فن المقال يضرب بجذوره في أدبنا العربي القديم ، فلم يولد ما بين عشية وضحاها عقب اختراع الطباعة وانتشار الصحافة ، دون أن يتوافر عليه كُتاب لديهم الموهبة والمقومات والعناصر الفنية واللغوية والتاريخية التي تُعينهم على القول في صورة إبداع مقالي ، وهو ما تحقق في آدابنا قديماً قبل أن تخترع الطباعة بقرون طويلة .

لقد تناول الأدباء والمتكلمون لدينا قديماً شتى الموضوعات في قدرة وإبداع فكري يجمع بين الإقناع والإمتاع لدرجة الإبهار في كل ما يمكن أن يفد إلى أذهانهم ، على نحو ما نجد لدى عَلَم مثل " الجاحظ " الذي يعد مضرباً للأمثال في فنون الكلام ، حتى قيل : إنه أكتب أهل زمانه ، لدرجة أنه كان يخطِّئ أرسطو ، ويتفوق عليه في أمور لم يسبق إليها مسجلاً ذلك في رسائله التي لا تعد مقالات فحسب ، بل هي صحافة كاملة ، على حد قول الدكتور شوقي ضيف :" إن العكوف على القراءة هو الذي جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف " (١).

إن معرفة أدبنا القديم فنَّ المقال من خلال ما عُرف " بالرسائل " أو " الفصول " التي كانت تعالج شتى الموضوعات من خلال كلام وأقوال منشئيها لابد أن يكون له جذور وبذور ترتبط بالأصل اللغوي لمعنى المقال الذي هو في الأصل قول يحمل معنى ، هذا المعنى قد يرتبط بموقف ، هذا الموقف قد يعبِّر عن فكرة أو رأي ذي تأثير ، وهو ما يثير سؤالاً عجيباً : أليست هذه هي أساسيات فن المقال في الأدب الحديث ؟!

ونحن لا نقول : إن فن المقال وُجد في أدبنا القديم بتقنيات المقال الحديث فأنى ذلك ؟! ولكننا نريد أن نقول : إنه وُجد من خلال مواده عن طريق تلك

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي : ص ٥٥ ، دار المعارف ، طبعة خامسة .

الجذور والبذور التي نمت في شذور [١] ربما كانت أسبق وأقوى في حينها من جودها لدى أمم كثيرة في عصور قديمة . ولذا فإن المأرب من هذه الدراسة هو تأسيس مقاربة نظرية تدفعنا إلى النظر في هذا الفن المقالي من حيث تجذُّره في ميراثنا الأدبي ، ثم نموه وتصاعده قديماً وحديثاً حتى غدا فناً له من التأثير ما له في شتى مناحي الحياة وتطوراتها على مر العصور .

إن الإنسان يسعى دائماً إلى التحضر في كل عصر ، ولكل عصر طاقته ، ولكل عصر ذوقه الذي يناسبه ، ولذا فمن الظلم الشديد ، بل قد يكون من الخطأ الكبير أن نتصور أن العصر الجاهلي لم يكن له أي ملامح حضارية ، لمجرد أنه أُطلق عليه هذا الاسم .

صحيح أن بعض الأمم آنذاك كانت قد تحضرت في مجالات لم يدركها العرب ، إلا أن العرب قد تحضروا في مجال لا يحتاج إلى دليل ، وهو فنون القول فصاحة وبلاغة ، وإن كان ذلك بصورة سماعية ، وهذا هو وجه التحضُّر أو الإعجاز البشري ، فرغم أميتهم إلا أنهم فاقوا كل الأجناس والألسن لدرجة لم يعجزها إلا قول خالق كل الأجناس والألسن وهو الله في قرآنه الكريم .

ومن المسلَّم به أن الخالق القادر على كل شيء كان يرسل رسله ويؤيدهم بالمعجزات في جنس ما برع فيه أقوامهم وتفوقوا على غيرهم ، وهو ما كان من تأييده عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم دليلاً على تفوقهم في فنون القول على من سواهم ، وهم الذين أثر عنهم أنهم قالوا : " لكل مقام مقال " ، وقد برعوا في ذلك في كل قول لدرجة أنه ﷺ قال : " إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة " . وقال تعالى : " ولتعرفنهم في لحسن القول " .

---

(١) كان هذا قبل عصر التدوين الذي بدأ بعد ظهور الإسلام وتحضُّر المسلمين الذي تحقق بفضل منهج الإسلام الذي عمل على تحضر العالم كله علمياً و أدبياً وفنياً .

وإذا كنتُ قد أشرتُ إلى أنه ليس المراد إثبات وجود المقال في تقنيات فنية منذ العصر الجاهلي بنمطه ذي التحضر السماعي حسبما يناسب زمانهم ــ فإن ذلك قد ثبت في أدبنا القديم بعد إشراق فجر حضارة جديدة من خلال نور الإسلام يمكن أن نطلق عليها حضارة " اقرأ " والتي يمكننا أن نزكي أنها " حضارة تدوينية " [١] قد بدأت بتدوين الوحي ، والبيان النبوي ثم إرسال الرسائل ، حتى بلغ الأمر إلى تسجيل كل شيء ، ثم تطور ذلك إلى تقعيد العلوم ، وإبداع الفنون والآداب التي راجت وازدهرت دون إنكار أو إغفال لإفادتها من الحضارات المجاورة والسابقة ، حيث غدا ذلك ينمو ويتضاعف ، ويتنوع في قوة صارت بعد ذلك كله نواةً لتحضُّر العالم الذي أفاد من الحضارة العربية والإسلامية أيما إفادة في مختلف العلوم والفنون والآداب ، فإذا بنا نجد أنفسنا وقد اختُزل ذلك كله أمام أقوال في العصر الحديث تقول : لم يعرف أدبنا القديم فن المقال إلا بعد اختراع الطباعة وانتشار الصحافة .

لم يقف الأمر عند حد أن قائلاً قال مثل الكلام السابق ، بل إن ذلك بات يتردد ويتكرر ، ويكاد يتواتر في تضاعيف كثير من الكتب والمراجع ، حيث صار ذلك يدرس في مقررات على طلابنا ، وهو أمر في غاية الخطورة ، إذ يُلقَى ذلك إلى أعداد هائلة على مدى سنوات وأجيال متتابعة ، تتلقى ذلك على أنه أمر مسلَّم به دون تفحُّص أو تمحيص ..

إنني في هذه الدراسة لا أريد أن أنتصر للقديم على حساب الحديث ، ولا للحديث على حساب القديم ، ولكنني أحاول أن أنظر بكلتا العينين من أجل رؤية أمينة ومتكاملة تذكر للقديم فضله وسبْقه وتطوره وتنوعه ورقيه وازدهاره ، دون إغفال لما لحق به من تكلُّف وتخلف قديماً ، كما تذكر للحديث نهوضه وتطوره ورقيه وازدهاره بصورة لم تتيسر من قبل ، من خلال إفادته مما أتيح له من

---

(١) اقرأ إن شئت عن ذلك بتوسع للمرحوم د. / عبد العزيز شرف في كتابه القيم : أدب المقالة في الحضارات الاقتصادية .

عوامل وروافد كثيرة قد تُرجمت عليه لغة وأسلوباً ، وموضوعاً ، وتقنيات فنية ، دون إغفال كذلك لمروره بسذاجة بدايات ابتعاثه إبان النهضة ، أو تعرُّضه لبعض العثرات كلما جدَّت بعض المستجدات .

إن هول الجرأة على أدبنا وفنونه ، وما يتبع ذلك من هول الغفلة بتكرار المتابعة هو ما دفعني لإنجاز هذا البحث في محاولة لجمع شتات الأمر ، حتى لا تتخفى الحقيقة . وهي محاولة يرجى أن تتبعها محاولات أخرى من أجل معالجة موضوعية دون مجاملة أو رغبة في مجادلة ، ولا أقول أن ذلك يتم بمواجهة الرأي بضده ، بل بتجاور الآراء المختلفة تجاوراً يعمل على إيجاد مقاربة تؤدي إلى تكامُل الرؤية التنظيرية لهذا الفن الأثير في تسلسل تاريخي وتقليب وتقريب منطقي يضع كل أمر في نصابه ، دون أن يتجلى أمر على حساب آخر .

والمقاربة التأسيسية المتوخاة في هذه الدراسة تبدو من خلال المحاولة للملمة شذرات تليدة باهتة أو شاردة هناك أو طريفة جديدة حديثة هنا ، ورؤى قد لا تبدو حتى تغيب أمام غيرها من الرؤى التي استقوت بغيرها من الأسباب ، وهو مما صعب إشكالية البحث ، وأجهد العزم دون الإحاطة والكمال ، إضافة إلى السعي إلى الاحتكاك بالنصوص وسبْرها بالتحليل والنقد الذي يأتي ترجمة أمينة لإجراءات نظرية تعبر عن تلك المراحل التأسيسية قديماً وصولاً إلي المراحل التنظيرية حديثاً ، وحسبنا أنها محاولة تمثل لبنة في بناء فن نرجو له التمام والنضج والارتقاء .

وصحيح وجود جهود وآراء متعددة تذكر وتقدَّر في هذا المجال ، لكن بعضها لم ينل حظه من الذيوع ، وبعضها تحقق له ذلك إلا أنه ركز على جانب معين في إشارات سريعة عن القديم مع تركيز على الحديث لدى الجميع ، فكانت هذه المحاولة رغبة في تقديم دراسة تنشد تكامل الرؤية ، مع الاعتراف بأن مساحة هذا البحث ليس بوسعها أن تقدم دراسة مستفيضة حول هذا الفن ، فالحق

أن هذا عمل أوسع من أن يُحاط به في صفحات معدودة ، وغاية مـــا يمكننا أن نقدم رؤية مجملة

مسددة أملاً في أن تثمر وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ..

إن مقاربتنا في هذه الدراسة لا تدعي لنفسها الكمال ، غير أنها تأمل في شرف المحاولة التي تحقق لها بعض أسباب الظفر في هذا الفضاء الرحيب الذي لا توجه سهام البحث فيه إلى بيئة محددة زماناً ومكاناً ، إذ هي تحلق في ذلك الفضاء الرحيب برمته قديماً وحديثاً ، ولعل ذلك يكون لنا عذراً في كثير من الأمور .

ومن المسلَّم به أنه ليس هناك كلمة أخيرة في الأعمال الفنية والأدبية ، وإذا كان قد سبق أن أشير إلى أن هول الجرأة والغفلة وتكرار الأمر كان دافعاً للبحث ، فإن هناك أموراً أخرى مشجعة دافعة ، من ذلك ما ذكره المرحوم الدكتور " محمد يوسف نجم " في مقدمة كتابه القيم " فن المقالة " متمنياً أن يرى للزملاء والباحثين داخل الجامعة وخارجها دراسات تسند دراسته ، وتضيف عليها ، وتوسع بعض جوانبها ... وأن يرى من يصحح رأياً ، أو يبدي رأياً جديداً .

ولذا أرجو الله أن أكون قد وُفقت في وجهتي ، وأصبت في غايتي ، وأن أكون قد حققت شيئاً مما تمناه الدكتور " نجم " وما يتمناه أساتذتنا الأجلاء ، وما يرجى للغتنا وأدبنا وفنوننا وأمتنا من خير ورُقي .

منهج البحث :

أفدت في هذا البحث من كثير من المناهج التي تعمل على إخراج البحث في صورة متكاملة ، حيث أفدت من المنهج التاريخي ، كما أفدت من المنهج الفني ، والتحليلي ، والمنهج المقارن ، والمنهج العلمي .

خطة البحث :

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ، ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع ، وأخيراً الفهرس . وذلك على النحو الآتي :

المقدمـــــــــــــة : قد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع ودواعي البحث ، ومنهجه وخطته .

الفصل الأول : فن المقال : رؤية تأصيلية نقدية ومقاربة تعريفية

وقد جاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث على النحو الآتي :

المبحـــــث الأول : فن المقال : رؤية تاريخية تأصيلية

المبحـــــث الثاني : فن المقال : مقـــــاربة تـــعريفـــــية

المبحث الثالث : فن المقال : رؤية تاريخية نقدية

الفصل الثاني : فـــــن المقال : نشأته وتطوره قديمـــــــاً

وقد جاء هذا الفصل في أربعة أطوار

الطـــــور الأول : المقال قبل الإســـــلام

الطـــــور الثاني : المقال في عصرَي صدر الإسلام وبني أمية

الطور الثالث : المقال في العصرين : العباسي الأول والثاني

الطـــــور الرابع : المقال في العصرين : المملوكي والعثماني

الفصل الثالث : فن المقال : ابتعاثه وتطوره في العصر الحديث

وقد جاء هذا الفصل في خمسة أطوار :

الطـــــــور الأول : تطور المقال من بداية النهضة إلى بداية ولاية إسماعيل ١٨٦٣م

الطـــــــور الثاني : تطور المقال من بداية ولاية إسماعيل إلى بداية الاحتلال ١٨٨٢م

الطـــــور الثالث : تطور المقال من بداية الاحتلال إلى قيام ثورة ١٩١٩م

الطـــــــــور الرابع : تطور المقال من قيام ثورة ١٩١٩م إلى قيام ثورة ١٩٥٢م

الطور الخامس : تطور المقال من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ إلى يومنا هذا

الخاتمـــــــــــــــــــــــــــة : ذكرت فيها أهم نتائج البحث .

ثبت بأهم المراجع والمصادر .

فهـــــــــــــــــــــرس بمحتويات البحث وأرقام الصفحات .

والله من وراء القصد .

الفصل الأول

فن المقال :رؤية تـأصيلية نقدية ومقاربة تعريفية

المبحث الأول : فن المقال : رؤية تـاريخية تـأصيلية

فن المقال يضرب بجذوره في أدبنا العربي القديم ، ذلك قبل أن تُكتشَف الطباعة وتنتشر الصحافة بعدة قرون تصل إلى عصور الإسلام الأولى إبان ازدهار الحضارة العربية التي لا يمكن اجتثاث جذورها الضاربة بأسباب من الأصالة التي هيأتها وأهلَّتها - قبل انبثاق فجر الإسلام - لأن تُتحدَّى بكلام الله عز وجلَّ تثبيتاً لرسوله ﷺ وتمييزاً بين ما أُنزل عليه من قول الله تعالى ، وما أوتى ﷺ من جوامع الكلم ، وبين ما برع فيه العرب من فنون القول التي تُذكَر ولا تتكَر ، وأنى ذلك و الله تقدَّس وتنزَّه يقول في محكم كتابه الكريم : ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (١). و يقول أيضاً تقدس كلامه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢).

وليس الأمر كما يردد كثير من الكتاب والنقاد مثل قول الدكتور أحمد هيكل : " لم يعرف أدبنا القديم هذا القالب الفني للكتابة النثرية . وهو قالب " المقالة " وإن كان عرف شيئاً قريباً منه ، وهو " الرسالة " التي نراها في بعض كتابات علم مثل الجاحظ ، حيث تناول موضوعات محددة في صورة مركزة تشبه - إلى حد كبير - شكل المقالة ، وإن لم تكن هى تماماً .

---

(١) سورة الأنبياء : آية رقم ٥ .

(٢) سورة يس : آية رقم ٦٩ .

فالمقالة تتناول موضوعاً أكثر تحديداً ، وتعرضه بصورة أشد تركيزاً ، وهذا الموضوع بقضية حية ، ويتجه فيه الحديث إلى الجماعة ، و يخضع آخر الأمر في أسلوبه لمقتضيات الصحافة التي نشأ معها هذا الفن " [١].

مثل هذا الرأي القاطع في نفيه وجود المقال في أدبنا العربي القديم لم يُسلِّم به بعض نقادنا وأعلامنا ، فجاء رأيهم قاطعاً كذلك في نفيهم هذا الرأي ومثله مثبتين وجود هذا الفن في أدبنا القديم على نحو ما يقول الدكتور " محمد مندور " : " ليس بصحيح أن ظهور المقالة كفن أدبي ارتبط بظهور الصحف والمجلات ، فقبل أن تُعرَف الصحف ، وقبل أن يخترع فن الطباعة الآلية بقرون طويلة عُرِف فن المقالة ، حيث اختاره عدد من الأدباء قالباً فنياً منذ عصر اليونان " [٢].

ومن ذلك أيضاً قول الدكتور " عبد العزيز شرف " : " إن فن المقال قد عرفه العرب تحت مسميات شتى منها : الرسائل والمقامات و الفصول ، قبل ظهور مقالات " بيكون " الإنجليزي ، بل وقبل ظهور مقالات سابقه في الأدب الفرنسي " مونتاني " إمام هذا الفن غير مدافع عند الأوربيين "[٣] .

أودُّ - قبل أن أعرض الآراء من ينفون وجود فن المقال في أدبنا العربي القديم ، وآراء من يثبتون ذلك - أن أعرض لورود " كلمة : المقال أو المقالة " صراحة منذ العصر الجاهلي ، ومروراً بعصر صدر الإسلام ، وحتى عصور التدوين بغرض تأمُّل استخدامها ومعطيات دلالاتها : شعراً و نثراً لدى الشعراء و الأدباء و أئمة اللغة وأرباب البيان .

---

(١) د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر ، من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ص ٧٠ ، ط خامسة ، دار المعارف ١٩٨٧ م .

(٢) د . محمد مندور : الأدب وفنونه ، ص ١٩٣ دار نهضة مصر ٢٠٠٦م .

(٣) د. عبد العزيز شرف : أدب المقالة في الحضارات الاتصالية ، السمعية ، التدوينية ، الطباعة ، الصحفية : ص ٢١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م .

فمن ورودها جاهلياً قول النابغة في معلقته [١]:

وأخبرت خير الناس أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع
مقالة أن قلت : سوف أنالـــــه وذلك من تلقاء مثلك رائـــــع

ونسب إلى كعب بن زهير أنه قال [٢]:

مقـــالة الســـوء إلـــى أهـــلها أســـرع مـــن منـــحـــدر سائل
ومـــن دعـــا الناس إلـــى ذمِّـــه ذمُّـــوه بالحـــق وبالباطـــل

ومن ورودها إسلامياً ما نسب إلى حسان بن ثابت أنه قال [٣]:

ما إن مدحت محمداً بمقالتي ولكن مدحت مقـــالتي بمـــحـــمـــد

وقد يتندَّر البعض بالاستدلال ببيت حسان ، حيث قصد بها مدحته للرسول ﷺ وذلك بالشعر ، والمقالة نثر . على أن حساناً قد أراد بالمقالة في شعره المدحي مطلق القول قصداً إلى الشعر فناً ، دون أن يكون قصده إلى النثر فناً ، فهل يعنى أن الشعر الذي لم يكن ليقصد به المقالة الاصطلاحية لم يكن موجوداً كذلك ؟! على أساس أنه لم يصرح بكلمة الشعر ، أو القصيدة التي يقصدها بكلمة " مقالتي " .

وليست الغاية من وراء ذلك التمحل أو التعسف ، أو تمييع الفنون والخلط بينها ، ولكن الغاية هى التأكيد أن المقالة فن قوليٌّ ، كما أن الشعر فن قوليٌّ كذلك ، غير أن الشعر هو فن القول المنظوم ، والمقالة إحدى فنون القول المنثور . و إذا كان أمر وجود الشعر لا يُنكَر ، فلمَ إنكار وجود المقالة إحدى أهم فنون النثر ؟!!

---

(١)ديوانه : ص٤٧-٤٨ ، تحقيق شكري فاضل ، بيروت ١٩٨٦م .

(٢)الطبع والصنعة : محمد الهيباوي ، ص١٥٠ ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٥٨هـ .

(٣)المثل السائر لابن الأثير ، ج٣ ، ص٢٤٠ ، تحقيق أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، نهضة مصر.

هذا النثر الذي يسجل " الجاحظ " أن جيده أكثر من جيد الشعر ، على نحو ما أورد في البيان و التبيين : " قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : لمَ تؤْثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامي لو

كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلَّ خلافي عليه ؛ ولكنى أريد الغائب والحاضر ؛ والراهن والغابر ؛ فالحفظ إليه أسرع ؛ والآذان لسماعه أنشط ؛ وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلُّت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور ؛ أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ؛ فلم يُحفظ من المنثور عُشْره ولا ضاع الموزون عُشْره " (١).

وقد وردت كلمة " مقالتي " في حديث النبي ﷺ (٢)" نضَّر الله امرأً سمع مقالتي ، فوعاها وحفظها وبلَّـــها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه " .

وقد أعطى الاستخدام النبوي الكريم لكلمة " مقالة " مقادير من السمو والجلال والثراء ، إذ لا يقتصر مدلول كلمة المقالة على مجرد مطلق القول ، ولكنها تدل على القول الذي يحمل فكرة ، ويعبِّر عن رأى ، وينقل موقفاً ، ويؤثِّر في المتلقي .

ثم استخدمت مادة الكلمة في صور متنوعة ومتواصلة ومتباينة على نحو انتشر بعد ذلك في أمهات كتب اللغة والأدب العربي ، إذ وجدناها تذخر موضوعاتها معنونة بـــ " قول في موضوع كذا .. " ، أو " عَوْد إلى القول في موضوع كذا .. " أو " فصل في كذا ، أو عن كذا .. " ، أو " رسالة عن كذا ... " ثم تكون هذه الرسالة ، أو ذاك الفصل ، أو القول على درجة مـــن التركيز والتفصيل ، والجمع - بدرجات ما - بين الإقناع والإمتاع

(١)البيان والتبيين : ص ٢٧٨ تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٩٨ م .

(٢)رواه الترمذي في سننه ، دار الكتب العلمية ، القاهرة ٢٠٠٠م .

، والتشويق والاستطراد والتأثير ، وإن لم تكن كلها على درجات من الجودة والإتقان .

لقد تحقق وجود " المقالة " وما في معناها في كثير من أمهات الكتب بمعنى يقترب من حدها الاصطلاحي ، بل لا يقترب من ذلك فقط ، إذ يعبِّر عن حدها ومقصودها وغايتها ، كما في كتب الجاحظ ورسائله ، وكتاب الأغاني للأصفهاني ، وكتاب العمدة لابن رشيق ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ،والأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع ، وكتابات ابن العميد ، والقاضي الفاضل ، وابن خلدون ، و غيرهم كثير جد كثير ..

وكما تحقق وجود المقالة في أمهات كتب اللغة والأدب بمعنى يقترب من حدها الاصطلاحي ، فقد تحقق وجودها كذلك في معاجمنا القديمة للغتنا العربية .

و لعل في الرجوع إلى أحد هذه المعاجم القيمة للوقوف على حدود المدلول اللغوي للمقالة ما يقطع بوجودها قبل تدوين هذا المعجم مارة بكل مراحل النشأة والتطور ، ثم النضج المتكامل فكراً وأدباً ، وذيوعاً و تأثيراً ، على نحو ما نجد في معجم " أساس البلاغة " للزمخشري[١]عن مادة (ق و ل) : رجل قؤول ، ومقول : منطيق ، وقولة ، وتقوالة ، وقوالة : كثير القول ، وسمعت مقاله ومقالته ومقالاتهم وأقاويلهم ، وكثير القيل والقال . وهذا قول فلان : رأيه ومذهبه " .

وما ذكره الزمخشري من أن المقال أو القول يعبر عن الرأي والمذهب هو ما أقرَّه مجمع اللغة العربـــية حديـــثاً في المعجـــم الوسيـــط عن مادة (ق و ل) " قال - قولاً ، ومقالاً ، ومقالة ... و (المقالة) : القول ... بحث قصير فى العلم والأدب والسياسة ، أو الاجتماع ، ينشر في صحيفة أو مجلة " [٢].

---

(١) أساس البلاغة : مادة (ق و ل) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٨م .

(٢)المعجم الوسيط : مادة (ق و ل) ، إصدار مجمع اللغة العربية ، ط٣ ، ١٩٩٨م .

صحيح أنه قد يحسب من التكلف محاولة أن تتلبس الدلالة اللغوية المفردة - للمقالة - بدلالة التعريف الاصطلاحي بكل ما تعنيه حدوده ، على أنه لا يمكن الفصل بين المدلول اللغوي والتعريف الاصطلاحي ، حيث يمثل المدلول اللغوي الإضاءة التي تبرز المعالم والحدود المميزة والفاصلة بين فن وآخر ، وهو ما يجلِّى ماهية أيِّ فن وحقيقته .

المبحث الثاني : فن المقال : مقـاربة تـعريفـية

جاءت خاتمة المبحث السابق دافعة لنا كي ننتقل إلى حدود التعريف الاصطلاحي لفن المقال ، غير أن بلوغ هذه الغاية في حدود من الدقة والإتقان من الأهمية بما كان على حد قول الدكتور " محمد يوسف نجم " [١]: " إذا ذهبنا نبحث عن تعريف جامع مانع للمقالة - أعيانا البحث ، وضلت بنا سبله ، شأننا في ذلك شأن هؤلاء النقاد الذين عجزوا عن أن يحيطوا هذا الفن الأدبي بتعريف دقيق ، نظراً لتشعب أطرافه واختلاطه بالفنون الأخرى على صورة من الصور " .

تعريفات أبرز الغربيين لفن المقالة :

ولعل أمر تأثُّر الكثيرين بالمقالة الغربية يدفعنا إلى أن نورد بعضاً من آراء وتعريفات أبرز الغربيين لفن المقالة على النحو التالي :

- **المقالة عند " مونتين "** يتسم أسلوبها بالحرية والتدفق والتشعب ، والسير على أصول غير مرعية أو قواعد معينة ، و يتألق فيها العنصر الشخصي [٢].

- **والمقالة عند " بيكون "** [٣]- كما يقول " العقاد " - : " في بواكيرها كانت طرائف من المتفرقات الفكرية تجمعها سلسلة الموضوع والعنوان في إيجاز شديد ، غير محتفل فيه بالتفصيل و التوضيح ، ثم جنحت في صيغتها الأخيرة إلى التسمُّح بعد التزمُّت ، والسخاء بعد الضنانة ، والتفسير بعد الإيماء

---

(١) فن المقالة : د. محمد يوسف نجم : ص ٩٣ ، ط رابعة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦ م .

(٢) السابق : ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) الشائع لدى كثير من النقاد والمتخصصين في الدراسات الأدبية عن هذين العلمين أن يذكر اسمهما هكذا : مونتين ، وبيكون ، لكن التحقيق ما ذكره البعض أنهما : مونتانى ، و باكون حسب النطق و الكتابة باللغة الأجنبية و خاصة الإنجليزية : " ميشيل مونتاني : Michel de-Montaigne " و " فرانسيس باكون : Francis bacon .

والاقتضاب . وازدانت بأجمل ما يزدان به النثر البليغ من براعة التشبيه ، وطرافة الأمثولة واختيار الشواهد من المأثورات "[١] .

- **وقد عرَّف الأديب الإنجليزي " الدكتور جونسون " المقالة** " بأنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام ، هى قطعة لا تجرى على نسق معلوم ، ولم يتم هضمها في نفس كاتبها . وليس الإنشاء المنظم - في نظره - من المقالة الأدبية في شئ " [٢].

ومن أبرز تعريفات أدبائنا و نقادنا العرب لفن المقال :

- **ذكر الدكتور محمد أحمد العزب تعريف المقالة اعتماداً على دائرة المعارف البريطانية** بأنها " قطعة فنية مؤلفة متوسطة الطول ، و تكون عادة منشورة في أسلوب يمتاز بالسهولة والاستطراد ، وتعالج موضوعاً من الموضوعات - على وجه الخصوص - من ناحية تأثر الكاتب به "[٣] .

- **وقد عرَّفها " الدكتور محمد يوسف نجم** " بأنها : " قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع ، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق "[٤].

- **وقد عرفها " سيد قطب** " بأنها : " فكرة قبل كل شئ وموضوع . فكرة واعية ، وموضوع معين يحتوى قضية يراد بحثها ، قضية تجمع عناصرها وترتب ، بحيث تؤدى إلى نتيجة معينة وغاية مرسومة من أول الأمر "[٥] .

ليس الغرض من ذكر تلك الآراء والتعريفات أو غيرها من المعالم والسمات لفن المقالة هو عملية حشد يبتغى بها استعراض ثقافة ، أو مجرد استهلاك مساحة ،

---

(١) السابق : ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) د.عطاء كفافي : المقالة الأدبية ووظيفتها في العصر الحديث ص ١٠ دار هجر ، ط ١ ، القاهرة.

(٣) د. محمد العزب : عن اللغة والأدب والنقد ، ص١٧١ ، ط أولى ، دار المعارف ، مصر١٩٨٠م .

(٤) د. محمد يوسف نجم : فن المقالة : ص٩٥ .

(٥) سيد قطب : النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ص٩٢، دار العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦م.

وتتجلى الغاية من ذكر التعريفات السابقة على النحو الآتي :

- لا شك في أن عرض هذه الآراء وغيرها من التعريفات يؤدى بالضرورة إلى تأملها وتمحيصها بما يفضى إلى الإيتناس بما لدينا من فنون أدبية - ومنها فن المقال - والثقة به بعد تقليب الأمر ، وبيان تحقُّقه لدى أسلافنا قديماً ، وصلاحيته لتفوقه في التأثير في زمانه وغيره ، إذ إنه أثّر في أمم أخرى في أزمنة لاحقة ، بل إن منه ما يصلح حتى في زماننا هذا.

ومن أمثلة ذلك قول ابن خلدون[١] في مقدمته المشهورة في فصل بعنوان" وجه الصواب في تعليم العلوم " :

" وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين - لهذا العهد الذي أدركنا - يجهلون طُرق التعليم وإفادته ، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ، ويحتسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه .... "[٢] .

- الإفادة من تلك الآراء والتعريفات ، وبيان ما بينها من تواصل وتكامل ، أو اختلاف وتمايز ، أو تنوع وتطور ، بغرض إيجاد مقاربة تعريفية تمنحنا قَدْراً من الثراء والعمق والإحاطة ، ودقة الرؤية في استبانة كُنْه هذا الفن وماهيته .

- تقرير تعدُّد الآراء وتنوُّع الرؤى حيال هذا الفن ماهيةً و نشأةً ، وأنه إذا كان لا يوجد تعريف جامع مانع لهذا الفن - فإن القول بحداثة هذا الفن في أدبنا العربي تأثراً برياح الغرب ليس هو القول الفصل ؛ إذ إن الثابت - كما

---

(١) ابن خلدون : يمني الأصل ، ولد بتونس ، وتردد في إقامته بين الأندلس ، وبلاد المغرب ، ثم ارتحل إلى مصر في عهد (بيبرس) فدرس في الأزهر ، وولي القضاء ، وكان كاتباً زكياً ، وبارعاً في التأليف ، ومن مؤلفاته : ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . ومقدمته مشهورة .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٠٢ طبعة دار الشعب ، القاهرة (د . ت) .

يقول العقاد - إن" الفصل " أو " الرسالة " الرائد الأول للمقالة في العالم على اعتبار أنهما أقدم من محاولات مونتين وباكون " [١].

إن المقاربة التعريفية إجراء يُتوخَّى به وضْع لبنة تؤسس وتمهد للانطلاق نحو معالجة موضوعية لهذه الآراء والتعريفات التي تقودنا إلى الاطمئنان في حديثنا عن نشأة فن المقال وتطوره ثم ازدهاره في أدبنا القديم .

ولولا أن طبيعة البحوث العلمية تقتضى الموضوعية والاستقصاء ، واتباع المنهج العلمي في عرض المقدمات ، و تتبُّع المعطيات ، ومناقشة التطورات وصولاً إلى النتائج - لكان لنا غناء في ذكْر أول تعريفين أو رأيين غربيين عن فن المقالة ، هذا الفن الذي طالما ردَّد الكثيرون أننا عرفناه عن طريق الغرب ، وأن أدبنا القديم لم يعرف هذا الفن الأدبي .

و إذا كانت الحكمة تقول : " و الحق ما شهدت به الأعداء " [٢] - فإن لنا في القولين السابقين وغيرهما ما يقطع بوجود فن المقال في أدبنا العربي القديم ، وتستطيع أن تجد ذلك بيسْر وغزارة في صورة لا تقل عما ذكره " مونتين " على الأقل ، وهو من " تُجْمِع مراجع التاريخ الأدبي على أنه هو رائد المقالة الحديثة في الآداب الأوروبية "[٣] .

بعد هذا العرض حول مدلول المقال لغةً ، وتعدد الآراء حيال مفهومه ، وضبط ماهيته وتعريفه الذي سبقت الإشارة إلى أنه قد يعزُّ٠ على الحصر وجود تعريف جامع مانع لهذا الفن الثري الأثير ، حيث تتباين التعريفات

---

(١) العقاد : يسألونك ص ٥ دار الكتاب العربي لبنان ١٩٦٨ م .

(٢) ليس المراد من ذكر هذا المأثور الحكيم بيان عداوة أصحاب تلك الآراء الغربية ، و لكن المراد هو إنصاف أدبنا حين يشهد له الأجانب ، حيث تكون شهادتهم قائمة على غير مجاملة أو قرابة ، ولذا يمكن القول فى المعنى نفسه : و الحق ما شهدت به الأجانب لا الأقارب .

(٣) د. محمد يوسف نجم : فن المقالة ص ٧ .

تعبيراً ،ورؤية ، وتأثراً ، وإن اتفقت في الغاية على أن المقال فن نثرى يعالج موضوعاً محدداً في صورة موجزة مركزة .

ولذا فإنه يحسن بنا من خلال تأمُّل ذلك كله ، ومناقشته والإفادة منه وغيره ، ممالا يتسع المجال لذكره - وخاصة التعريفين العربيين للدكتور " نجم " والأستاذ " سيد قطب " - حيث إنهما يكادان يتكاملان ، ويمنحاننا قدرة على فلسفة التعريف في صورة تنشد الموضوعية ، ودقة الضبط .

والموضوعية تقتضى الاعتراف أن محاولتنا ضبط التعريف ترى أن التعريفين السابقين هما وجهان لعملة واحدة ، فأحدهما : يركز على ماهية هذا الفن من وجه عفوية الخواطر ، وثانيهما : يركز على إعمال الفكر والمنطق .

ولذا فإننا يمكننا القول عن تعريف فن المقال :

إن " فن المقال " نوع من النثر الفني ، يعالج فكرة محددة ، في عرض شائق ومثير ، وأسلوب ملائم ومؤثِّر .

وقد آثرت - رغبة في دقة الضبط - بعض العبارات على غيرها ، فلم أشأ أن أطلق عليه : أنه قالب - كما يذكر كثيرون - لما قد ينصرف إليه الذهن لدى البعض من أن هذا القالب بمثابة إطار محدد يفرغ فيه أي موضوع بصورة لا تتغير .

كما لم أشأ أن أُرهق القارئ بأيٍّ من التأويلات ، ولذا آثرت أن أبين من أول الأمر : أن المقال نوع من أنواع النثر الفني قصداً إلى مغايرته باقي الأنواع التي يختلف كل منها ماهية وإطاراً وعناصر .

وقد يقول قائل : إن " القصة القصيرة " تعالج كذلك موضوعاً محدداً ، إلا أنها لا تعالجه على سبيل الاستقصاء ، وإنما على سبيل العرض المكثف لجزئية ما في لمحة سريعة على سبيل الإيجاز الشديد والتكثيف الدقيق .

أما " المقال " فإنه يعالج الموضوع على سبيل التفصيل والتحليل ، وذكر الأسباب ، واستنتاج النتائج .

المبحث الثالث : فن المقال : رؤية تـاريخية نقدية

إذا كان مؤرخو الأدب يقسمون تاريخ المقالة إلى طورين متباينين ، يقف مونتين حداً فاصلاً بينهما ، وأن الطور الأول الذي ظهرت فيه المحاولات المقالية كانت في صورة بدائية فجة [١] - فإن المقالة في أدبنا العربي القديم تكون قد مرت بالطور الأول البدائي الساذج ، ثم تطورت ووصلت إلى طور النضج والتكامل في صور عرفت "بالرسالة " أو "الفصل " أو "القول " ، وذلك قبل أن تبدأ محاولات الطور الأول في معظم الآداب الأوروبية .

ولذا فقد صدق العقاد حين قال [٢] : إن " الفصل " أو " الرسالة " الرائد الأول للمقالة في العالم على اعتبار أنهما أقدم من محاولات " باكون " و " مونتاني ".

إن محاولات " باكون " التي ذكرها " العقاد " لم تكن سوى المقالات التي كتبها . و كذلك أطلق " مونتاني " من قبل على مقالاته " المحاولات : " Essays " . كأنه يعتذر من ترسله فيها بغير تقيُّد بموضوع واحد أو تعمُّق في التفكير ، وكانت المحاولة في اصطلاح الفنانين هي معالجة صنع التمثال من مادة رخوة قبل صَبِّه في قوالب .. فأراد "مونتاني" بمقالته أن تكون " محاولات " رخوة من هذا القبيل ، وقصرها على الأحاديث المستخفة والتجارب الشخصية "[٣] .

- إن أكثر ما يكون التعصب مذموماً أن يكون في ساحات العلم ومباحثه ، ولذا فإن الكلام السابق لا يعنى أننا نتعصّب للغتنا وآدابها ، وهو في الوقت نفسه لا يعنى أن ننتقص من شأن الآخرين ولغاتهم وآدابهم ؛ فإذا كان الدكتور " مندور " قد قال [٤] : " ليس بصحيح أن ظهور المقالة .. ارتبط بظهور الصحف

---

(١) د. محمد يوسف نجم : فن المقالة ص ٧ .

(٢) العقاد : يسألونك ص ٥ .

(٣) د. عبد العزيز شرف : أدب المقالة فى الحضارات الاتصالية ص ٢١ .

(٤) د. محمد مندور : الأدب و فنونه ص ١٩٣ .

و المجلات .. فقبل أن يخترع فن الطباعة الآلية بقرون طويلة عُرف فن المقالة ، حيث اختاره عدد من الأدباء قالباً فنياً منذ عصر اليونان " - فإن كلام الدكتور " مندور " يعد منصِفاً ، إذ إنه لم ينفِ معرفة " اليونان " - وهي أمة أوروبية - بقالب المقال قبل اختراع الطباعة بقرون طويلة ، على أن هذا الرأي الذي صرّح به بالنسبة لأمة من الأمم الأوروبية إذا كان ينسحب على أمة أخرى مثل "الرومان " فإنه لا ينسحب على جميع الأمم الأوروبية ، حيث إنه من المعلوم أنهم ليسوا أمة واحدة ، و لا يتكلمون لغة واحدة كما هو الشأن لدينا بتكريم الإسلام في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (١) .

فلا يفهم من كلام الدكتور " مندور " عن معرفة اليونان بقالب المقال قبل ظهور الطباعة بقرون طويلة أن ذلك خاص بهم دون العرب ، إذا إن القصد : هو أنه ما دام كان هذا ثابتاً لدى اليونان في أدبهم القديم ، فإنه ثابت كذلك لدينا في أدبنا القديم .

(١) سورة : المؤمنون : آية ٥٢ .

على أن إثبات وجود المقال في قالب فني لدى اليونان ، لم يكن يعنى أنه كان معروفاً بهذا الاسم [١] ، بل كان يعرف من خلال وجوده في عديد من المحاولات أو المحاورات ، والأقوال والكتابات الأدبية والفلسفية والنقدية المختلفة ، كما هو الشأن لدى أسلافنا في رسائلهم وأقوالهم ومقاماتهم وفصول أمهات كتب لغتنا وأدبنا العربي القديم .

- إننا لنكنُّ كل احترام وتقدير لكل من تتلمذنا لهم ، ونهلنا من علمهم ومؤلفاتهم ، غير أننا نحتفظ ولا نقبل في توصيف فنون أدبنا ، وما يتصل بماهيتها ووجودها ، حيث باتت تعتمد بداهة على تصدير يصدَّر إلينا من خلال متابعة أدباء ونقاد أعلام أجانب ، أو دوائر معارف عالمية أجنبية مهما تحقق لهم ولها من التفوق والذيوع والانتشار، وليس هذا رفضاً للإفادة ممن تَقَدَّم أو تَفوَّق علينا ، فإن في هذا الرفض قبول ورضا بالجهل والتخلف ، على أننا نرفض كل متابعة قد تعمل على طمس الأسس والأصول العظيمة الخاصة بتاريخنا وتراثنا ولغتنا وآدابنا وفنونا التي يجب علينا أن نحافظ عليها ، ونضيف إليها ، ونعمل لرقيها واستمرارها ، كما هو الحال لدى الأمم المتقدمة التي لابد لنا من مطالعة ما حققته في تحضُّرها ورقيها، والإفادة من ذلك ، كما أفادوا من حضارتنا إبان نهضتها وازدهارها .

(١) منذ متى كانت الأسماء حين تتغير يدل ذلك على تغير المسمَّى شكلاً ومضموناً ؟ فهل يدل تغيير اسم شارع ما على سبيل المثال من اسم عرف به قديماً إلى اسم جديد يطلق عليه ، هل يدل ذلك على تغير من يعيشون فيه قلباً و قالباً ؟ قد تطرأ على معيشة من يسكنون ذلك الشارع وحياتهم سمات جديدة ، وقد يطرقون سبلاً جديدة تضيف إليهم أشياء جديدة ، وهذا هو ما نريد أن نترصده ، إذ نتعرف في هذه الدراسة مسيرة فن المقال على مدى تاريخه : قديماً وحديثاً ، نشأةً وتطوراً ، وتنوعاً حتى استوى فناً له معالمه وأعلامه ، وطرقه في الكتابة عبْر مراحل متتابعة ، لكل مرحلة ظروفها ، وسماتها ، وخصائصها .

وإذا كان يقال[١] : " فتحت الرسائل بعبد الحميد " - فليس معنى ذلك أنه أول من كتب الرسائل ، ولكن الرسائل والكتابات والأقوال النثرية موجودة ثابتة من قبله في حقب وأزمان غابرة ، غير أنها تطورت وارتقت على يديه حتى صارت فناً ذا سمات واضحة وطريقة مميزة عُرفت بطريقة " عبد الحميد " الفارسي الأصل الذي صار عَلماً في هذا الفن ، وكان أستاذه " سالم " يوناني الأصل ، " غير أن الرسائل كلون أدبي ، وخاصة الرسائل الرسمية نشأت في حجر العرب ، ونمت تحت أيديهم "[٢] .

وما أجلَّ وأدقَّ كلام الدكتور " شوقي ضيف " ! إذ يدفع فرية قديمة تتصل بغيرها من الفري الحديثة التي تحاك من زمن إلى آخر من قِبَل الموتورين والمزيفين حقائق التاريخ ومعطيات فنون الأدب :

" حقا يقال : إن العرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس ، ولكن الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالى ، لم يوجِدوا لهم هذا الفن من كتابة الرسائل السياسية ، وإنما أوجدته حياتهم وضروراتها السياسية والإدارية ، ومن هنا كنا نرفض رفضاً باتاً رأى بعض المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتاباتهم السياسية الفنية ، أو نثرهم السياسي الفني من لدن الفرس ؛ فالعرب لم يستعيروا من الفرس ولا من غيرهم نثرهم ، كما أنهم لم يستعيروا منهم ولا من غيرهم شعرهم . وكل ما يمكن أن يلاحظ أنهم أخذوا مع الزمن يتأثرون في شعرهم جميعاً بالأجانب من الفرس وغير الفرس ، وتم ذلك بحكم التطور "[٣] .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج٣ ، ص ١٣٧ ، دار الكتب العلمية ، القاهرة ١٩٨٣م ، والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢ ، ط الحلبي ١٩٣٨م .

(٢) د/ شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٠٣ ، ط خامسة دار المعارف ، مصر .

(٣) د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٠٤ وما بعدها .

وحكم التطور حسب مرور الزمن هو أبسط ما يمكن أن نطبقه على كلام الدكتور " أحمد هيكل " في رأيه السابق عن عدم وجود فن المقالة في أدبنا القديم ، وإن وجد فيه شئ يشبهه أو يقترب منه عرف باسم الرسالة .

إنه يقول عن " الرسالة " : إنها تتناول موضوعات محددة في صورة مركزة .

ثم يقول عن " المقالة " : إنها تتناول موضوعات أكثر تحديداً في صورة أشد تركيزاً .

فأي زيادة بين القولين السابقين ، اللهم إلا ما يمكن أن يكون طبعياً حسب تطور العصر الجديد ، وما يقتضيه من أمور لم تكن لتكتشف ، أو تناسب ظروف الإنسان في الزمن القديم ؟!

وليس في هذا شئ من العنت مع الدكتور " هيكل " أو غيره ، ولكنها الموضوعية والإنصاف على حد قول الدكتور " عبد الرحمن عبد الحميد " : " لا ينكر باحث - منصف - ظهور المقالة في أدبنا العربي القديم ... ولكن صورتها تختلف - بالطبع - عن صورتها في العصر الحديث"[١] .

- وأما قول الدكتور " هيكل " عن المقالة بأنها : " تتصل بقضية حية"[٢] ، وكأن هذا لم يتحقق في " الرسالة " أو غيرها قديماً - فإن في إحالة القارئ إلى أيٍّ من أمهات الكتب سالفة الذكر ما يجلِّى مدى حيوية وأهمية الموضوعات والقضايا الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية وغيرها التي زخرت بها تلك الكتب في أدبنا القديم .

---

(١) د. عبد الرحمن عبد الحميد على : معالم المقال الأدبي والصحفي ص ١٣ ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ٢٠٠٨م .

(٢) د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر ص ٧٠ .

- وأما قوله عن المقالة بأنها :" يتجه فيها الحديث إلى الجماعة "[١] ، وكأن هذا الأمر كذلك لم يتحقق في " الرسالة " - فرغم دقة كلام الدكتور " أحمد خليل " في قوله : " وكثيراً ما كانت الرسالة الأدبية في الأدب القديم موجهة من كاتبها إلى شخص معين وإن لم يمنع ذلك من أن تكون صالحة لأن توجه إلى أي قارئ بسبب عمومية موضوعها " [٢]، فما أكثر الرسائل التي لم تكن ليقصد بها شخص بعينه في أدبنا القديم ، كما أنه ما أكثر المقالات التي لم يتجه الحديث فيها إلى الجماعة مباشرة ، رغم أنها كتبت في العصر الحديث ؛ فليست الذاتية هى التي تفصل بين المقال في ثوبه الحديث أو القديم في غلاف الرسالة أو الفصل أو القول في مقطوعات نثرية تعالج شتى الموضوعات .

- وأما قوله عن " الرسالة " : " إنها تشبه إلى حد كبير شكل " المقالة " - فإن الإنصاف يقتضى قلب التشبيه حتى يستقيم المعنى أصالة ، إذ إن الرسالة تعد أصلاً مشبهاً به ، حيث تمتعت بالقوة والخصوبة والنمو والتفرع ، والتطور والازدهار .

فلقد تنوعت الرسائل وما اتفق معها في أداء دورها قديماً فكان منها : السياسية ، والأدبية والدينية والاجتماعية والعلمية ، مثلما تنوَّع المقال حديثاً فكان منه : السياسي ، والأدبي ، والديني والفلسفي والعلمي والنقدي ... إلخ مع مراعاة الفارق بين طبيعة وظروف وطاقة كل عصر ، وتقدير كل دور يؤدى إلى رُقيَّ هذا الفن دون إنكار ، وفى مقدمة ذلك اكتشاف الطباعة ، وازدهار الصحافة .

---

(١) السابق

(٢) د. أحمد خليل : في الأدب العربي الحديث ص ٧١ ، ط الرسالة ، دمنهور ١٩٨٨م .

- ولذا ، فإن ما تحقق قديماً من فن نثرى مقالي في صورة رسالة أو فصل أو مقالة يعد إنجازاً وإعجازاً [١] - حسب ظروف العصور القديمة المتواضعة في إمكاناتها - قياساً بما أتيح للعصر الحديث من وسائل ومنجزات متقدمة ومذهلة .

(١) يعد ذلك إنجازاً وإعجازاً مقالياً بشرياً استحق أن يُتحدَّى أربابه بمعجزة إلهية تمثلت في كلام الله عز وجل الذي لا يطيقه الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

الفصل الثاني

فـن المقال : نشأته وتطوره قديمـاً

الطور الأول : المقال قبل الإسـلام

أثر عن العرب قديماً أنهم قالوا : " لكل مقام مقال " .

والله جل وعلا يقول [١]:﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ .

ومن جوامع الكلم للرسول ﷺ : " **إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً** " [٢].

والإجماع في مراجع التاريخ الأدبي على أن الكاتب الفرنسي " ميشيل مونتين " هو رائد المقالة الحديثة في الآداب الأوربية[٣].

وتاريخ " المقالة " عندهم يأتي في طورين متباينين ، يقف " مونتين " حداً فاصلاً بينهما . والطور الأول هو الذي ظهرت فيه المحاولات المقالية في صورتها البدائية الفجة ، حين كانت تجارب مضطربة لا يحكمها ضابط ولا يحدها قانون ، وذلك قبل أن تتطور إلى صورتها الحديثة "[٤] .

إن من يتفحص الكلام السابق يدرك لأول وهلة أن " المقال " لم يكن مجهولاً لدى العرب القدماء في معانيه الأولى التي لا ينفصل عنها ــ في مراحل التطور والنضج ــ مفهومه الأدبي والفني ، وليس ذلك بمستغرب لدى من أدرك أن لكل حال أو ظرف أو مقام ما يناسبه من طرائق التعبير وأساليب المقال التي

---

(١) سورة محمد : آية ٣٠ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، دار ابن كثير ، بيروت ٢٠٠٢م ، وابن حنبل في مسنده ، دار الحديث ، القاهرة ٢٠٠١م .

(٣) د. محمد يوسف نجم : فن المقالة ص ٧ .

(٤) السابق

لو لم يكونوا قد برعوا فيها ، أو على أقل تقدير أنهم قد عرفوا منها الشيء الذي جعلهم في طُرق القول والتعبير عن مقاصدهم يستحقون أن يقول الله عز وجل فيهم :

﴿ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾.

قال " ابن كثير " في تفسيره عن ﴿ لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ ﴾ [(١)] : " أي فيما يبدو من كلامهم الدالِّ على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول " .

وإذا كان صدر الحديث الشريف للرسول الكريم ﷺ قد أعلى من شأن " الشعر " إذ يتحلى بالحكمة - فإن عجز الحديث قد بلغ بقسيم الكلام لدى العرب حين لا يكون شعراً ، إذ يقصد إلى " النثر " ، حيث يتبلغ تأثيره حد السحر ، وهذا لا يعنى أننا نريد أن نتمحّل معنى الحديث الشريف بحصر مراده في معنى فن المقال أو غيره ، وإنما نعنى إدراك المعنى بشموليته مطلق القول من النثر ذي التأثير الذي لا يمكن إغفاله مهما كانت درجات إهماله ، وإلا لو لم يكن بهذه الصورة من التنوع والتعبير والتأثير ، فكيف يُفهَم تقدير القرآن الكريم بصورته القولية المعجزة لقول البشر ؟

فهل نزل القرآن على بشر لم يمهروا في فنون القول ؟

- إنهم إذن لن يفهموه .

وإذا كانوا كذلك - فكيف يتحداهم وهم ليسوا أهلاً للتحدي ؟ - لقد ذكر القرآن الكريم ما وصل إليه (قول البشر) من التأثير ، وإن كان ذلك قد ورد في شأن أحد رؤساء الكفر " الوليد بن المغيرة " رغم اعترافه بأن القرآن ليس من كلام البشر ، " وأنه ليعلو ، ولا يُعلَى عليه " [(٢)]. ولا يستطيع أحد أن يحكم هذا الحكم إلا إذا كان ذا خبرة ودراية ، ودربة بفنون القول .

---

(١) تفسير ابن كثير، المجلد الرابع : ص ١٨٣ ، دار الحديث القاهرة ١٤١٥هـــ - ١٩٩٤م .

(٢) راجع المصدر السابق ، ج٤ ، ص٤٤٣ .

إن في الإجماع السابق لمؤرخي الأدب ما يدل على وجود مثل تلك المحاولات المقالية البدائية في أدبنا القديم ، ولا يدعونا هذا إلى مجرد الفرح والتسليم بتحقُّق ذلك في أدبنا القديم ، وإنما يدعونا إلى عناء البحث الذي يستقصى الأمور ، ويتعمق الجذور، ويتفحص البذور التي لولاها ما نبت النبات ، ولا ازدهر الزهر، ولا أثمر الثمر الذي قد يقف كثيرون يتأملون جماله وتنوعه وتلونه الباهر مغفلين أمر البذور التي كانت سبباً ، والجذور التي كانت أصلاً ، والفروع التي حملت الأوراق والزهر والثمر .

لقد تباينت الآراء حول وجود فن المقال في أدبنا العربي قديماً وحديثاً.

فإذا كنا نجد من ينكر وجود النثر الفني في العصر الجاهلي - فهل يعنى ذلك أن نقابل هذا الرأي بأن نعلن وجوده بوفرة لمجرد الإعلان ؟!

وهل المطلوب أن نسلّم لقوة إنكار المنكر إيثاراً للسلامة والراحة ، إن كان في ذلك سلامة ، أو أن نركن إلى إطلاق القول بوجوده بوفرة رغبة في إثبات الذات ، إن كان في الرد نوع من مجرد ملء الفراغ في هذا الشأن ؟!

إذا كان من الأجانب من ينكر إنكاراً مطلقا أن يكون هناك نثر فني كالذي يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة ، أو دفْع شبهة ، أو إيضاح مشكلة [١]" ــ فإن منهم المنصف الذي لم ينكر هذا الإنكار ، على نحو ما نجد لدى " بروكلمان " إذ يقول : " يمكن القول بأن فن التأثير بالكلام المتخير، الحسن الصياغة والتأليف في أفكار الناس وعزائمهم قد ازدهر عند عرب الجاهلية ، أن هذا الفن قد اشتمل على بذور النمو الأدبي المتأخر" [٢].

وإذا كان من نقادنا من رأى أن أدبنا القديم لم يعرف فن المقالة على نحو ما ذكر الدكتور " أحمد هيكل " ــ فإن الدكتور " شوقي ضيف " قد أعلن مثل ذلك ــ في صورة غير مباشرة ــ غير أنه جعل ذلك مقصوراً على الأدب في

---

(١) راجع لـــ د. زكى مبارك : النثر الفني ص ٢٥ ، دار الكتب المصرية ١٩٣٤م .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج١ ، ص ١٢٨ ، دار المعارف ، مصر .

الجاهلية ، حيث قال [١] : " وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية ، وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة رسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية " .

على أن الإنكار المطلق لوجود نثر فني لدى الجاهلية في صورة متقدمة حسب ما يقتضيه قول " المسيومارسيه " لا يقتضينا أن نعتسف القول ادعاءً بمعرفة الكتابة فناً نثرياً لدى عرب الجاهليين ، ولكننا نجد أنه " كان يقوم بالوظيفة التي نعرفها في زماننا للمقال الصحفي ، وهذه النظرة تحتل مكانها الصحيح حين ننظر إلى فنون النثر العربي على الأساس الذي كانت عليه، والمصالح الجمعية التي استهدفتها فنونه القولية " [٢].

ونحن كذلك لا ننكر أن تلك الوظيفة التي كان يقوم بها فن النثر قديماً أنها كانت في صورة بدائية على قدر طبيعة تلك الحياة البدائية التي تعبر عن أناس بدائيين ، يعيشون حياة بسيطة لدرجة التفكك ، حيث لا يقرُّ لهم قرار إلا حيثما تتيح لهم حياتهم سلماً وسلاماً ، ثباتاً وتطوراً . وكذلك كان نثرهم المعبِّر عن هذه الحياة ، حيث لا يمثل سوى بذور فن راق على حد قول " بروكلمان " سلفاً .

وليس في هذا الأمر ما يدعو إلى التعصب أو التعجب ، فكذلك كان شأن الأدب قديماً لدى غير العرب ، " فقد ظهرت بذور الأدب المقالي بأنواعه المختلفة في الآداب القديمة .. وهذا الأمر ليس مظنة الاستغراب ، فالمقالة في حقيقتها شأن سائر فنون الأدب الأخرى تقوم على ملاحظة الحياة وتدبُّر ظواهرها ، وتأمل معانيها . وهذه ظاهرة نفسية رافقت الإنسان منذ ظهوره على

(١) د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) د. عبد العزيز شرف: أدب المقالة في الحضارات الاتصالية ص ٨٨ .

وجه الأرض ، إذ هى مركبة في طبيعته ، بل في جوهر جِبِلّته التي فُطر عليها ، وقد عبَّر عنها منذ فجر التاريخ في تهاويل السحر ، ورسوم الكهوف ، ووُجدت في أحاديثه ومسامراته قبل عهد التدوين متنفساً ومراحاً "[١].

وإذا كانت العملية الإبداعية لأي فن تقوم في جوهرها على التواصل بين المبدع والمتلقي ــ فإن ذلك في فنون النثر لا يتم إلا عن طريق الكلام الذي ينقل إلى الآخرين الأفكار والمشاعر من أجل تكامل عناصر الوجود تعارفاً وتفاهماً وتفاعلاً ، إذ إن " الاتصال حقيقة أساسية للوجود الإنساني والعملية الاجتماعية . وأدب المقالة من بين الفنون الأدبية شكل من أشكال هذه العملية "[٢] .

إن كلام الدكتور " شوقي ضيف " السابق قد يشي أو يؤدى إلى تأكيد عدم وجود المقال في أدبنا العربي قديماً في العصر الجاهلي معللاً ذلك بعدم وجود وثائق صحيحة تدل على معرفة الجاهليين بالرسائل الأدبية ، على أنه " قد يكون من الخطأ البيِّن أن نتصور أن أدب المقالة الذي يعبِّر عن وظيفة اتصالية جاء وليداً للحضارة وحدها "[٣] .

ومن يرجع إلى أمهات كتب التراث في اللغة والأدب والتاريخ مثل : الأغاني للأصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والكامل لابن الأثير ، وشرح النقائض لأبي عبيدة والحيوان والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، ومجمع الأمثال للميداني ، والعمدة لابن رشيق القيرواني ، ومقدمة ابن خلدون ، وصبح الأعشى للقلقشندي .

إن من يرجع إلى هذه الكتب يجدها تزخر بأحاديث عن تاريخ العرب في العصر الجاهلي وأيامهم ووقائعهم فيما كان بينهم داخلياً ، وما كان بينهم وبين غيرهم من أمم مجاورة ، وكثيراً ما كانوا يتداولون ذلك في حلِّهم وترحالهم

---

(١) د. محمد يوسف نجم: فن المقالة ص ٨ .

(٢) د. عبد العزيز شرف: المرجع السابق ص ٩ ، ١١ .

(٣) السابق

وأسمارهم ، في صور متباينة ذات عناصر قصصية أو إخبارية مقالية ، تمتزج فيها الحقائق بالخرافات والوقائع بالتأملات المشفوعة بألوان من الحكم والأمثال أو المفاخرات التي تعبر عن الذات وما يحيط بها ، كما تحمل آراء ورؤى فيما يعنُّ لهم من أمور، وإن أوردوها في صورة بذور لموضوعات بدائية ساذجة تعد أقولاً أو مقالاتٍ بدائيةً ، كما هو الشأن في الآداب غير العربية قديماً ، فهذا هو شأن الأمم جميعا في أطوار بداوتها عبر العصور القديمة .

إن الدكتور " شوقي ضيف " لم ينكر معرفة عرب الجاهلية الكتابة الأدبية ، غير أنه قصرها على الاستخدام ذي الأغراض السياسية التجارية التي " لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية " [١]. إلا أن هذه الاستخدامات السياسية أو الاقتصادية التي تؤدى بعض الأغراض المجتمعية التي لا يمكن أن تخلو من أغراض فكرية أو وعظية مصبوغة بصبغة أدبية لما تحمله أحياناً من تهديد أو رغبة في مهادنة ، أو تذكير ذي تأثير عن طريق إيراد حكمة أو إرسال مثل .

وإذا كان العرب قد عرفوا الرسائل السياسية أو التجارية قديماً ــ فإن فن المقال حديثاً لم يقتصر على كونه أدبياً فقط ، بل إن منه السياسي والاقتصادي والديني والفلسفي ... إلخ .

إن الحقيقة أن الأدب المقالي يرتبط بالنثر كقاعدة عامة ... والنثر بدوره مرتبط " بحضارة التدوين " التي تمثل واسطة العقد بين الحضارة السمعية والحضارة الطباعية في التطور الاتصالي للتاريخ الإنساني "[٢] .

على أن البذور المقالية وُجدت في الحضارة السمعية التي نبعت منها كلمة " المقال " بدلالاتها اللغوية التي أسلفنا ذكرها . حيث تعنى كلمة مقال Essay ــ

(١) د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٩ .

(٢) د. عبد العزيز شرف : أدب المقالة في الحضارات الاتصالية ص ١٣ .

محاولة epreuve أو خبرة experience أو تطبيقاً مبدئيا premiere أو تجربة أولية premiere tentative ذلك أن كلمة essay مشتقة من اللفظessayer ومعناه : يقيس أو يجرب ... ويلاحظ أن كلمة essay الإنجليزية ومرادفتها بالفرنسية essai تتفق إلى حد كبير مع المعنى اللفظي لكلمة " مقال " باللغة العربية ، فهذا اللفظ متقارب في اشتقاقه من الأصل " القولي " في اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية "[١].

إن القول بعدم وجود وثائق تدل على معرفة الجاهليين الكتابة الأدبية ــ على فرض التسليم أو الركون إلى ذلك ــ لا ينفى دور المسموع أو المروىِّ مما بقى محفوظاً في التأصيل لنشأة هذا الفن وبداية وجوده ، ولا غرابة في تواتر وبقاء بعض ذلك ؛ فإذا كانت " المقالة لا يعدو معناها اللفظي أنها شئ يقال "[٢] ــ فإن العبرة في مثل هذه الحال إنما تشير إلى أصول هذا الفن الأدبي ، وارتباطه بالحضارة السمعية ... وهي الحضارة التي أبدعت البيان باللسان "[٣] ، ذلك أن الله تعالى " خلق للإنسان اللسان وأنطقه بالبيان فعبَّر عما في نفسه من الحكمة التي أفادها والمعرفة التي اكتسبها "[٤] .

وارتباط فن المقال بتلك الحضارة السمعية أيام الجاهلية قبل أن تتحقق حضارة الإسلام التدوينية يجعله من أقدم الفنون الأدبية ، وإن تعددت وتنوعت صوره أشكاله فيما بعد حسبما توافر له من ظروف التطور ، ومهيئات الرقى والنضج التي تلائم كل عصر .

فالمقال ــ كما تقدم ــ في صميم هذا الاستعمال أو غيره " كلام شفوي يرتبط بالنطق ، فإذا ذكر المقال بعد ذلك في العصور التي ازدهرت فيها الثقافة

---

(١) د. إبراهيم إمام : دراسات في الفن الصحفي ص ١٨٠ ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٢م .

(٢) د. عبد العزيز شرف ، أدب المقالة في الحضارات الاتصالية ص ٨٣ .

(٣) السابق

(٤) ابن وهب : البرهان في وجوه البيان ص ٦٠ ت حفني شرف ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٦٩م .

الأدبية وفى هذه العصور التي نحياها أو أطرافاً منها ، وأنه يعنى الكلام المكتوب أدركنا أضخم الفروق التي طرأت على استعمال هذه اللفظ بين القديم والجديد "[١].

وإذا كان المدلول الاصطلاحي لحقيقة هذا الفن يعنى أنه القول الذي يحمل رأيا " يؤثَّر في المتلقي ، أو يتأثَّر به " فإن هذا يعني أن أدبنا العربي القديم في عصره الأول قد تحقق فيه ذلك بصورة متداولة بين أهله ، على نحو ما نجد في قول كعب :

مقالة السوء إلى أهلـــــــها أسرع من منحدر سائـــل

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطـــــل

فالمقالة هنا تعنى : القول الذي يحتوى على ذمٍّ أو سوءٍ بناءً على رأى طائفة من الناس لشخص أو أشخاص ، وقد يكون هذا الرأي قائماً على عنصر قصصي لحادثة أو شائعة بغرض التنبيه أو التحقير أو غير ذلك ، وهذا القول يكون له تأثيره في المتلقي .

إننا لا نريد أن ندَّعى معرفة عرب الجاهلية الكتابة الفنية التي تشمل في تنوعها الفن المقالي في صورة متقدمة أو منضبطة ، ولكننا نريد ألا نقبل أن يُضرَب صفحاً عن ذلك التراث الأصيل بإغفاله بذوراً وعناصر وشذرات متفرقة أحياناً ، ومختلطة بغيرها أحيانا أخرى شأن تلك الحياة غير المنضبطة وغير المنتظمة .

وهذا هو ما حدا بنفر من باحثينا ونقادنا الغيورين أن يتلمسوا وجود الفن المقالي في أدبنا لدى الجاهليين مؤمِّلين في بذوره وشذوره ، وعناصر فنونه التي من بينها الأمثال ، حيث يعلن أحدهم قائلاً[٢]: " لا نستطيع أن ندعى لهم عن طريق الوثائق الصحيحة ، الأمثال ... وليس في وسعنا في هذا المجال أن

(١) د. عبد العزيز شرف: المرجع السابق : ص ٨٧ .

(٢) د. عبد العزيز شرف : مرجع سابق ص ٨٨ .

ننصرف إلى دراسة دقيقة للنثر الجاهلي ، ولكننا نجد أنه كان يقوم بالوظيفة التي نعرفها في زماننا للمقال الصحفي " .

وهو يرى ذلك لما وجده في " المثل " من أنه " قريب ــ بطبيعة وضعه وصياغته ــ من فن المقالة على النحو الذي تطورت إليه في الحضارة السمعية تعبيراً عن الحياة وتأملاً لها ، بل إن " مونتاني " رائد أدب المقالة في فرنسا ١٥٧٢م وقع تحت تأثير كتابات " فلوطارخوس " التي وجدها في قراءاته ، فكانت زاداً لقلمه الغض الناشئ . ولم تكن كتابات " فلوطارخوس " تخلو من الأمثال والأوابد والأقوال السائرة "[١].

وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وإنشائها ، وضربها والتمثل بها في مختلف شئون حياتهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقونها في شتى الأحداث والمواقف ، يقول الجاحظ [٢] : " كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ،ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفع والانتفاع " .

وقد خلَّف لنا الأدب العربي منذ العصر الجاهلي تراثا ضخماً من الأمثال وقد عنى بجمعها وترتيبها وشرحها كثير من علمائنا الأثبات ، من أشهرهم أبي عبيدة ، وأبو هلال العسكري في كتابه:" جمهرة الأمثال " ، والميداني في كتابه : " مجمع الأمثال " ، ولك أن تتخيل قيمة هذا الفن وحجم ما يتصل به من دراسة حتى ذلك العهد الذي يقول عنه " الميداني " في مقدمة كتابة السالف : إنه رجع في تأليفه إلى ما يربو على خمسين كتاباً .

إن هذه الأمثال لم تأت هكذا دفعة واحدة ، بل ربما كانت عناوين لكلام كثير . وكما يقولون : " الحكم عنوان الحقيقة " ، إذ إن الحكم يكون مبنياً على مقدمات وأسباب لحوادث ووقائع ، فكذلك تكون الأمثال نتاج أحداث ، ووقائع

---

(١) السابق نفسه ، والصفحة ، وانظر كذلك : فن المقالة لمحمد يوسف نجم ص ٣٠ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ، ج١ ، ص ٢٧١ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

قــد تسرد في أقوال وصور متشعبة تحمل أفكاراً ورؤى ، ولذلك قال ابن المقفع[١]: " إذا جُعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وأوفق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث " .

ولا بد للأمثال من أصل تكون قد جاءت بسببه ، وقد يكون ذلك الأصل حقيقياً ، وقد يكون فرضياُ خيالياً ، على لسان حيوان أو نبات أو جماد مع ارتباط ذلك بالإنسان ، وتسمى الأمثال في النوع الأول : حقيقية ، وتسمى في الثاني فرضية أو خيالية .

وتستطيع أن تتبين الدور الوظيفي الذي تقوم به الأمثال ، حيث تتواصل مع فن المقال ، وتعمل على تغذيته وإمداده بروافد فكرية أخرى فنية من خلال تمثُّل طائفة من الأمثال العربية القديمة السائرة :

ومن الأمثال الحقيقية :

ــ " قبل الرِّماء تمــلأ الكنائن " : يضرب في الإعداد لكل أمر مهم بما يقتضيه .

ــ " سبق السيف العزل " : ويضرب للفائت يستحيل تداركه .

ــ " تجوع الحرة ولا تأكل بثديها " : يضرب لصيانة المرء نفسه عن خسيس الكسب .

ــ " على قومها جنت براقش " : ويضرب لغير المتعقل يجني بغبائه على قومه .

ومن الأمثال الفرضية الخيالية :

- " كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك؟ " : يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لسابق آثار غدره . ويأتي هذا في خرافة الحية والفأس التي تقول[٢]:

---

(١) د. عبد العزيز شرف : مرجع سابق : ص ٩٣ .

(٢) أمثال العرب للمفضل الضبي : ص ٨١ ، دار الرائد العربي ١٩٨٣م .

" إن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريباً منها واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المكلىء فرعيت فيه إبلي وأصلحتها . فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته . قال : فو الله لأهبطن ، فهبط ذلك الوادي . فرعى إبله زماناً ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما في الحياة بعد أخي خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها ، أو لأتبعن أخي ، فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : ألست ترى أني قتلت أخاك ؟ فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي فتكون به ، وأعطيك ما بقيت ديناراً كل يوم ؟

قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم . قال : فإني أفعل . فحلف لها وأعطاها المواثيق : لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالاً ، ثم إنه ذكر أخاه ، فقال كيف ينفعني العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخي .. ؟ فعمد إلى فأس ، فأخذها ، ثم قعد لها . فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ودخلت الجحر . فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها ... ولما رأى ذلك تخوف شرها وندم ، فقال : هل لك أن نتوافق ، ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك ؟ " .

إن كل مثل مما سبق يعد نواة لمقالة ، إذ هو قول رائع النسق ، يغلب عليه الإيجاز وبلاغة العبارة التي تحتفظ بحرية تعبير لغوي سيادي مهما كان نوع الخطاب أو نسق الكلام .. إذ يأتي ثمرة ناضجة من ثمرات المراس الطويل ، والتجربة الصادقة ، والعقل الراجح والرأي السديد[١] ".

(١) د . علي الجندي : في تاريخ الأدب الجاهلي ص ٢٦٠ ط دار المعارف ١٩٨٤ ، القاهرة .

وقد يستخدم كل مثل من ذلك ليعبر عن موقف ، أو يعالج فكرة ، ويكون في ذلك من التأثير ما فيه ، ليكون استخدام المثل ومعالجته بعد ذلك ضرباً ذا عناصر مقالية لم تكن لتغيب عن أدبنا القديم .

الطور الثاني : المقال في عصرَي صدر الإسلام وبني أمية

أولاً : المقال في عصر صدر الإسلام

حين أشرقت شمس الإسلام ، وشرع الوحي يتنزل من السماء على الرسول الكريم الذي أتاه الله أوتى جوامع الكلم فإن تاريخ النثر العربي يكون قد شهد صفحات من التطور والرقى شكلاً ومضموناً بصورة لا ينكر منصف أنها أسست لحضارة أمة استحقت أن تكون كما قال رب العالمين تبارك وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١)، إذ تأخذ بالأسباب التي أمدَّها بها هذا الدين القيم . ولذا فإنها تعد حضارة إعجازية قياساً لحال العرب آنذاك بحال الأمم المتحضرة ، حيث لا وجه للمقارنة ، ورغم ذلك فإن العرب قد حققوا بالإسلام حضارة عملت فيما بعد على تحضُّر العالم كله .

لقد تنزل القرآن الكريم كتاباً معجزاً ، لا هو شعر ، ولا هو نثر مما أفرزته قرائح العرب أرباب الفصاحة والبيان ، وإنما هو كلام جليل ، ونظم جديد في كل شئ : لغة وأفكاراً وأغراضاً وآداباً وأغراضه ،إنه حقاً وصدقاً وفصلاً أحسن الحديث مطلقاً : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (٢)، وهو ليس من قول البشر ، ولا تطيق الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله . قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠ .

(٢) سورة الزمر : آية ٢٣ .

يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [١]، كما أنهم قد عجزوا عن يأتوا بسورة من مثله حين تحداهم بذلك .

قال تعالى [٢]:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّت لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ . .

على أن ما في الآية الكريمة من إشارة إلى التحدي ما يدل على مدى ما بلغه القوم في فنون القول من قدرة وتأثير أن جعلهم أهلا للتحدي ، وإن عجزوا فلا يعيبهم ، لأن التحدي إنما يكون بين النظائر والأنداد ، أما الله عز وجل فلا ند له ، ولا نظير ، وهنا تكون المعجزة حين يبلغ الإنسان من التفوق والمهارة قدْراً لا يدانَي من أنداده من البشر ، ثم هو يعجز أمام قدرة الله الواحد القاهر الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [٣].

لقد اعترف صناديد العرب بأن القرآن الكريم ليس من كلام البشر ، وأنه يعلو فوق كل كلام ، على نحو ما قال رأس الكفر " الوليد بن المغيرة "، غير أن اللافت للنظر في هذا الحكم أو الاعتراف من الوليد ، أو غيره ممن سمع وأذعن هو أن ذلك إنما ينبع من نفوس مقتدرة ؛ ففاقد الشيء لا يعطيه ، والحكم لا يصدر إلا عمن يملك الأدلة والعناصر والقرائن التي تجعل من يحكم إنما يحكم عن علم ومعرفة ، لكن ذلك كله لم يمنع العربي الخبير بفنون القول والأدب من أن يعترف ــ وإن لم يؤمن معانداً مكابراً ــ بعجزهم أمام إعجاز قول الله تعالى .

---

(١) سورة الإسراء : آية ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة الشورى : آية ١١ .

تلك هى معجزة الإسلام الأولى متمثلة في القرآن الكريم ، أما معجزة الإسلام الثانية فإنها تتمثل في الرسول الكريم ﷺ ذاته بكونه أمياً . قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ (١)، ومع ذلك فقد أوتى ﷺ جوامع الكلم الذي جعل الناس وهم يستمعون إليه كأن على رؤسهم الطير ، لما يجدون في كلامه من حكمة وتعابير ومقاصد سامية جامعة في فصاحة وبلاغة دونها فصاحة وبلاغة البشر، وهو الأمي الذي " لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين الإفهام وقلة عدد الكلام ... ولم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ " (٢).

وإذا كان الله تعالى قد أرسل رسوله للناس أجمعين رحمة للعالمين ، فإن رسالته قامت أساساً ــ منذ أول مرة بدأ يتنزل فيها الوحي ــ على إعلاء شأن القراءة والكتابة بأسلوب الأمر الوجوبي المؤكد عن طريق التكرار ؛ لأنه ما من سبيل إلى العلم وتعلُّم ما لم يُعلَم إلا عن طريق القراءة التي تطلع الإنسان على كل معرفة جديدة ، والكتابة التي يسجل بها كل جديد توصل إليه . قال جل شأنه لرسوله ﷺ فى أول آية نزل بها الوحي : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ (٣)، ولأهمية شأن الكتابة وجلالها أقسم الله عز وجل بآلتها "القلم" ، فقال (٤): ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

---

(١)سورة العنكبوت : آية ٤٨ .

(٢)الجاحظ : البيان والتبيين ،ج٢ ، ص١٧ ، طبعة الحلبي .

(٣)سورة العلق : الآيات ١ــــ ٥ .

(٤) سورة القلم : آية ١ .

ولذا فلا يمكن إغفال واقعة أسرى بدر الذين جعل الرسول الكريم ﷺ سبيل افتدائهم من الأسْر أن يعلِّم الواحد منهم عشرة من صبيان المدينة [١]. ولا غرابة في ذلك ــ رغم ما ثار من جدل حول قضية الأسرى وأمر الكتابة ــ إذ إن الرسول ﷺ يعلم أن أمْر الكتابة من الأهمية بما كان ويكون ، إذ تعد دعامة أساسية لقيام دولة الإسلام من أجل خير الإنسان ورُقيه في كل مكان وزمان .

ولأن النبي ﷺ يعلم شأن الكتابة ومدى أهميتها في الحياة عامة فإنه لم يكتف بالدعوة إلى تعلم العربية قراءةً وكتابةً فقط ، بل لقد دعا النبي ﷺ بعض أصحابه إلى تعلم غير العربية منذ مقدمه إلى المدينة على نحو ما ورد في البخاري ، " عن زيد بن ثابت : أتى النبي ﷺ حين مقدمه المدينة ، فقيل : هذا من بني النجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة من القرآن الكريم ، فقرأت عليه ، فأعجبه ذلك ، فقال : تعلَّم كتاب يهود ، فإني ما آمنهم على كتابي ، ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له " [٢].

ومع انتشار أمر الدعوة الإسلامية ، واتساع مساحـــة الحياة الجديدة وتطور ظروفها وتشعب الاتصال بالأقوام والإمارات والدول المجاورة اقتضت كل هذه الظروف وغيرها أن يكون للرسول ﷺ طوائف من الكتاب : منهم طائفة اختصوا بكتابة الوحي ، وكان على رأس هذه الجماعة عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ﷺ ، وكانا إذا غابا كتب له أبى بن كعب وزيد بن ثابت ﷺ . وكان يكتب للرسول بين يديه في حوائجـــه خالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان . وكان المغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير يكتبان مابين الناس . وكان عبد الله بن الأرقم ، والعلاء بن عقبة الحضرمي يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم . وكان حنظله بن الربيع

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٧٠، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩م .
(٢) السابق ص ١٧١ .

ابن أخي أكثم بن صيفي خليفة كل كاتب من كُتاب الرسول إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب " [١].

ويتضح من ذلك مدى التوسع في استخدام الكتابة وتعدد مجالاتها شريعةً واجتماعاً ، وسياسةً أو غير ذلك مما لاغني عنه في كل حاجة من حاجات الدولة في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده ، حيث كان الرسول ﷺ يرسل الرسائل إلى الأمراء وملوك الدول يدعوهم إلى الإسلام ، أو يكتب لهم المكاتبات التي تشتمل على عهود الأمان ، كما كان يكتب المكاتبات التي تشتمل على التصالح أو التحالف ، وعلى ذلك يمكن القول : إن النثر قد تحقق له من الأسباب ما مكَّنه من أن ينهض نهضة كبيرة على مستوى المضمون ، والتنوع ، والجدة والتأثير الشديد .

ومن ازدهار النثر بروز هذا اللون الكتابي الذي أطلق عليه اسم " الرسائل " ، وهى التي يرى " الدكتور عبد اللطيف حمزة " أنها ــ مع التجوز القليل ــ صحافة كاملة بالنسبة للعصور التي ظهرت فيها " [٢].

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٢ ، طبعة الحلبي .

(٢) د. عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة ج١ ص ٦ ، ٧ .

نماذج من الكتابة في صدر الإسلام :

- رسالة النبي ﷺ إلى وائل بن حجر الحضرمي وقومه حيث قال ﷺ [١]:

" من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة [٢] من أهل حضرموت بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، في التَّيعة شاة ، والتَّيمة[٣] لصاحبها ، وفي السُّيوب[٤]الخُمس ، لا خِلاط ، ولا وِراط ، ولا شِناق[٥]، ولا شِغار[٦]... وكلُّ مسكر حرام " .

وحقاً لا يمكن أن نخلع على هذه الرسالة الشريفة ، وما فيها من مقال أو أقوال للرسول ﷺ صفة المقال الاصطلاحي ، ولم يكن هذا مقصوداً لذاته ، وإنما كان القصد هو تبليغ أحكام دعــوة الإسلام إلى أولئك القوم .

وهذه الأحكام جاءت في صورة إخبارية تحمل فكرة أساسية ، وتشتمل على عدة أفكار فرعية ، فهي بصفة أساسية تحمل فكرة ضبْط الحياة وتقنينها من أجل تكامل عناصر المجتمع الغنية والفقيرة ، وهى كذلك تحمل فكرة غيرة مباشرة ، إذ تعمل بذلك على تنقيــة المجتمع ، كما تعمل على ترقيته لتمنع المحرَّم والضار المهلك .

وهي في النهاية تحمل فكرة تقدير الإسلام لكل الأقوام والناس أجمعين.

---

(١) محمد حميد الله الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص١ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) الأقيال : الملوك والأمراء . والعياهلة : العظام .

(٣) التيعة : الأربعون من الغنم . وهو أقل ما تجب فيه الزكاة .
والتيمة : الشاة غير السائمة أو الراعية .

(٤)السيوب : جمع سيب . وهو المال المدفون أو المعدن .

(٥)الخلاط : خلط الغنم أو الإبل بغيرها لمنع الزكاة .
والوراط: إخفاء الغنم والإبل للتهرب من الزكاة . والشناق : الخلاطة .

(٦)الشغار : زواج في الجاهلية أبطله الإسلام .

وقد جاء ذلك كله في صورة موجزة ، وعبارة مركزة تعمد إلى إيصال الفكرة في وضوح تام ، ولا تعتمد على اصطناع أو تكلف .

وحقاً لقد حملت هذه الرسالة الشريفة قدراً عظيماً من عناصر " المقال " ، وتستطيع أن ترى فيها الدور الإعلامي الاتصالي أو الصحافي على خير وجه في صورة باكرة مشرقة منذ فجر الإســـلام .

- ورسالة عمر ﷺ في القضاء إلى أبى موسى الأشعري تعد مثالاً راقياً ، ونموذجاً متقدماً في هذا المجال .

يقول عمر ﷺ في هذه الرسالة (١) :

" بسم الله الرحمن الرحيم

أمـــا بعـــــــــــد

فإن القضاء فريضة محكمة ، ورسالة متبعة ، فاهم إذا أُدلى إليك ؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك ؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً ، أو أحل حراماً .

ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهُديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ؛ فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ .

اعرف الأمثال والأشباه ، وقِس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدعى حقاً غائباً ، أو بينة إليه ، فإن أَحضر بينة أخذتَ له بحقه ، وإلا وجهتَ عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، ج٢ ، ص٤٨ وما بعدها .

إلا مجلوداً في حدٍ ، أو مجربا ًعليه شهادة زور ، أو ظنيناً [١]في ولاء أو قرابة ؛ فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم الشبهات .

ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله - تبارك وتعالى - ولو على نفسه يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس . ومن تزيَّن للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره ، وأبدى فعله . والسلام عليكم ".

إن هذه الرسالة ــ كذلك ــ تعد في موضوعها وأسلوبها وبنائها نموذجاً آخر للمقالة في عهد الخلفاء الراشدين ، إذ تتناول قضية حية ، بل هى من أجلِّ القضايا التي يحتاجها الإنسان لكل زمان وفى كل مكان .

وهى وإن وُجِّهت إلى شخص بعينه إلا أنه لم يكن مقصوداً لذاته فقط ، وإنما لكونه والياً يمثل الناس ويقوم على أمورهم وشئون حياتهم ، ولذا فهي جديرة بأن يؤخـــذ بها في ساحات القضاء والحكم بين الناس .

وقد جاء بناء هذه الرسالة أو هذه المقالة متكاملاً ، حيث تحدث عمر ﷺ سريعاً في البداية عن أهمية الموضوع بأن جعله فريضة محكمة ، ثم تناول في العرض عناصر تحقُّقه تفصيلاً وتحليلاً وتحديداً حسب ما يقتضيه ذلك ، مع ذكر الأسباب واستخدام القياس والإعلاء من شأن العقل المؤهل لضبط الأحكام ، حتى يصل في النهاية إلى نتيجة حاســمة فيها جماع الموضوع وخلاصـــة القول بأن سبيل تحقُّق عدالة القضاء تكون في مراقبة الله القاهر فوق عباده بالإخلاص وترك النفاق .

---

(١) معنى أدلى إليك : أي ألقى إليك بالأدلة والحجج . ومعنى آسِ بين الناس : أي ساوِ بينهم .
ومعـــــنى يتلجلج : يضطرب في غير وضوح . ومعـــــنى الظنين : المظنون فيه المتهم بالميل لقرابة أو غيرها .

ولأهمية الموضوع وجلاله فإنك تلاحظ أن الأسلوب قد غلب عليه الوضوح ، وإعلاء شأن الحقيقة ، ولذا فقد قلَّ فيه شأن الخيال ، وإن اصطبغ بألوان بديعية ، إلا أنها جاءت عفوية تقتضيها المعالجة لإبراز المعنى ، وخدمة الفكرة التي يعالجها من خلال عاطفة متزنـــة نقية ، وحِسٍّ نبيل صادق ، وفكر سديد ثاقب .

ثانياً : المقال في عصر بني أمية

حينما نتأمل كتابات ورسالات كاتب مثل " عبد الحميد بن يحي " في عهد بني أمية نجد أن الكتابة الفنية من خلال رسائله الأدبية قد بلغت من التطور والرقى مبلغاً يُتمثَّل به ويهتدي إليه ، ولذلك ضُرب به المثل في ذلك ، حيث قيل : " فُتحت الرسائل بعبد الحميد ... " [١].

ورسالته الشهيرة إلى الكُتاب تعد مقالاً نقدياً تتحقق فيه أهـــم سمات المقال الحديث وخصائصه الفنية في كونه يعالج موضوعياً حياً لا يقف فيه الحديث عند العهد الذي قيل فيه ، ولم يقتصر الحديث فيه غلي من وجَّـــه إليهم القول ، وإنما هو يتجاوزهم إلى أمثالهم من الكتاب ما بقيت الحياة والأحياء ، وقد عالج الكاتب ما قاله في هذه الرسالة بصورة غاية في التركيز من خلال مواءمة فنية بدت الرسالة فيها نموذجـــاً للمقال في بنائه الفني الحديث .

يقول عبد الحميد الكاتب في مقدمة هذه الرسالة [٢]:

" أما بعد ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ، ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء ــ وصرفهم في صنوف الصناعات ... فجعلكـــم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، وأهل الأدب و المروءات .

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر :ج٣ ص ١٣٧، طبعة الصاوي .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٧٣ وما بعدها .

ثم يقول في عرض رسالته هذه [١]:

" وليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكُتاب ... " .

ثم يعدد هذه الصفات متمثلة في كون الكاتب : حليماً فهيماً، حكيماً ، عفيفاً ، منصفاً ، كتوماً وفياً " عالماً بما يأتي من النوازل ، ويضع الأمور في مواضعها ، والطوارق في أماكنها . قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ، فيعد لكل أمر عدته وعتاده ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف [٢] ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ؛ فإنه حلية كتبكم ، وارْووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، و أيام العرب و العجم ، وأحاديثها وسيرها ؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم .

ثم يقول في خاتمة هذه الرسالة بعد أن حذّر من سفاف الأمور[٣]:

" ... فليقتصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه ، وليوجز في ابتدائـــه وجوابه ، وليأخـــذ بمجامع حججه ؛ فإن ذلك مصلحة لفعله ، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره ، وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافـــة وقوعه في الغلـــط المضر ببدنـــه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظان ، أو قال قائل ، إن الذي برز من جمـــيل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ـــ فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه " .

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٧٣ وما بعدها .

(٢) ثقاف : ما يقوم به اللسان .

(٣) الوزراء والكتاب ص٧٣ .

حقاً لقد صدق " أبو جعفر المنصور " الخليفة العباسي حين قال [١]: " غلبنا بنو مروان بثلاثـــة أشياء : بالحجاج ، وعبد الحميد بن يحي ، والمؤذن البعلبكي " . ومن عجب في هذه الرسالة أن يورد الكاتب في خاتمتها لفظة " المقالة " مريداً بها مثل هذا اللون من الكتابة الأدبية أو الفنية في نسجها ، وبنائها ، وأسلوبها، وطريقة معالجتها .

ولا أقول إن الكاتب قد بلغ في رسالته أو مقالته هذه حد المعرفة والممارسة الإبداعية لهذا الفن الكتابي المقالي ، بل إنه ليكاد يبلغ بها حد التنظير أو إرساء الأصول التي ينهض عليها هذا الفن موضوعاً ، ولغةً وأسلوباً ، وإطاراً أو بناء .

ولذا فإن هذه الرسالة النموذجية لا تعد ــ لما استُجمع فيها شكلاً وموضوعاً ــ مقالاً قد توافرت فيه متطلبات المقال الحديث ، وإنما هي تعد نموذجاً ــ في كثير من الأمور ــ يهتدي به كُتاب المقال في كل عصر .

(١) الوزراء والكتاب ص٧٣ .

الطور الثالث : المقال في العصرين : العباسي الأول والثاني

إذا كان قد سبق أن أشير إلى تحقُّق " المقال " في صورة لون آخر من الكتابة الفنية لدى أسلافنا القدماء في عصور التدوين في صورة فصول متنوعة الموضوعات والأساليب ، ويجمع تلك الفصول كِتاب ، وتتعدد الكتب أو أمهات الكتب العربية على هذه الطريقة ؛ فإنك إذا رجعت إلى كثير من هذه الكتب وجدت الكِتاب منها يتألف من فصول مجموعة على شئ من الصلة في موضوعاتها أحياناً ، أو بغير صلة في أحايين كثيرة ، ولو أنك رجعت إلى آثار علم مثل الجاحظ في كتبة ورسائله لوجدتها زاخرة برسائل تعد نماذج مقاليه راقية ، وتتنوع تنوعاً مذهلا ، إذ تبدو أحياناً ذاتية ، كما تبدو في أحايين كثيرة موضوعية : جادة أو ساخرة ، تنحو منحى تصويرياً مثيراً ، أو فلسفياً عميقاً ...

ــ وإليك نموذجاً من رسائله التي تعد مقالاً موضوعياً يتلقاه الإنسان ويتأثر به في كل زمان ومكان .

يقول الجاحظ في رسالة له بعنوان " الحاسد والمحسود "[١] :

" وهب الله لك السلامة ، وأدام لك الكرامة ، ورزقك الاستقامة ، ودفع عنك الندامة . كتبتَ إليَّ ــ أكرمك الله ــ تسألني عن الحسد ما هو ؟ وأين هو ؟ وما دلائله وأفعاله ؟ وكيف تفرقت أموره وأحواله ؟ وبم يعرف ظاهره ومكنونه ؟ ولم صار في العلماء أكثر من الجهلاء ؟ ولم كثر في الأقرباء ، وقلَّ منه في البعداء ؟ وكيف دبَّ في الصالحين أكثر منه الفاسقين ؟ وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان ؟

(١)الرسائل الأدبية للجاحظ ، جزء ٢ ، ص١١١-١١٣ ، ط٢ ، دار ومكتبة الهلال .

ثم يقول [١]:

" الحسد ــ أبقاك الله ــ داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عسِر ، وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، فما ظهر منه فلا يدارى ، وما بطن منه فمداويه في عناء .

وما أتى المحسود من حاسد إلا من قبل فضل الله إليه ، ونعمته عليه . والحسد عقيد الكفر ، وحليف الباطل ، وضد الحق ، وحرب البيان . وقد ذمَّ الله أهل الكتاب فقال : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [٢]. فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفريق بين القرناء ، وملقح الشر بين الخلطاء ، ويكمن في الصدر كمون النار في الحجر .

ولو لم يدخل ــ رحمك الله ــ على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستكان الأحزان في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووساوس ضميره ، وتنقيص عمره ، وكدر نفسه ، ونكد لذاذة معاشه إلا استغفاره لنعمة الله تعالى عنده ، وسخطه على سيده ، بما أفاءه الله عبده ، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، وألا يرزق أحد سواه لكان عند ذوي العقول مرحوماً ، وكان عندهم في القياس مظلوماً .

وقد قال بعض الأعراب : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم .

فإذا أحسست ــ رحمك الله ــ من صديق بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته ، وحصِّن سرك منه تسلم من شذى شره ، وعوائق ضره ، وإياك والرغبة في مشاورته ، فتمكن نفسك من

---

(١)السابق : ص١١٢-١١٣ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٩ .

سهام مشاورته ، ولا يغرنك خدع ملقه ، وبيان ذلقه ، فإن ذلك من حبائل ثقفه "

.

- لا أراني مبالغاً حين أقول عن هده الرسالة : إنها تعد نموذجاً للمقالة الحديثة في أدق ما تكون عليه من كمال فني في بنائها الذي يأتلف من (مقدمة وعرض ، للموضوع ، ثم خاتمة) .

وقد جاء بناؤها متلاحماً في نسيج يحتذى ، ومعالجة تتحقق فيها كل مواصفات ما تقتضيه المقالة من أهمية الموضوع ، ووضوح الفكرة وحيوية المعالجة في إثارة ذات جدوى وجذب وتشويق ، من خلال (مقدمة) موجزة تُسلم المتلقي إلى حقيقة الموضوع ، إذ يطلعه على فكرته الأساسية ، ثم يفصّلها ، ويبين سماتها العامة وكذا الخاصة ، وآثاره تلك على المجتمع بكل فئاته في كل زمان ومكان الاجتماعية زماناً و مكاناً ، وفئات كل ذلك ، في (عرض) متلاحم متسلسل يسلمك إلى (خاتمة) موجزة مركزة يقدم فيها من وجهة نظره العلاج الناجع للقضية التي عالجها .

- ولا يبقى إلا أن ندرك أن تلقِّى الناس لمثل هده الرسالة أو المقالة يتفاوت من نظرة إلى أخرى بين أهل اللغة والأدب من جهة ، وبين أهل اللغة والفقه من جهة ثانية ، وبين أهل الفلسفة والاجتماع من جهة أخرى ..

- فالرسالة نموذج للغة الموضوعية أسلوباً ، ومفردات ، و هي نموذج كذلك للعمل الأدبي فكرة ، وبلاغة ، وقد اتسمت بسمات تعبر عن طريقة كاتب متفرد ، وإن آثر شيئاً من البديع في إبداع دون التزام .

.....

لم تكن الرسائل كلها كذلك على النحو الذي رأيناه في رسالة الجاحظ ، فقد رأينا كيف كانت تعد رسالته السابقة مقالاً موضوعياً ، على أننا - بموضوعية نقدية - لا نريد أن نبرز الجانب الإيجابي في تراثنا الأدبي وحسب ، بل نحن نتمثل الأمر من وجه آخر لطبيعة هذا الفن المقالي ، إذ يتحول اهتمام

المبدعين إلى الشكل على حساب المعنى ، حيث طغت الزينة اللفظية على صنعة الكتابة بصورة مسرفة مهما بلغ ذلك من إتقان بديعي ، على نحو ما تَمثَّل في كتابات أحد الذين ضرب بهم المثل في إشارة سابقةً ، حيث قيل : " فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد " .

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن صدر هذه المقولة لا يعني انعدام وجود الكتابة قبل " عبد الحميد " ، فإن عَجُز هذه المقولة لا يعني كذلك انعدام الكتابة بعد " ابن العميد " ، حيث وُجِدت بكثرة وتنوع ، وجودة متفاوتة ، غير أنها تشير إلى مرحلة جديدة ، كما تشير إلى ظهور اتجاه جديد في الكتابة لا شك أنه سيكون له تأثيرات متباينة على طبيعة هذا الفن.

وهذا نموذج لعلم من أعلام كتابة هذا الفن الذين اشتهروا بالصنعة البديعية ، إنه القاضي الفاضل الذي يقول في رسالة إلى الخليفة ببغداد يزفُّ إليه بشرى فتح بيت المقدس على يد " صلاح الدين " .

يقول القاضي الفاضل [١]:

" أدام الله الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجد بكل جاحد ، غنى التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء المحامد ، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل ... " .

ثم يقول عن صلاح الدين وفتحه بيت المقدس [٢]:

" فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهار به بصيراً ، والشرق يهتدي بأنواره ، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأن واره ؛ فإنه نور لا تكنّه أغساق السُّدف، وذكرٌ لا تواريه أوراق الصحف.

وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد ، وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الفكر مهتومة ،

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ، ٦ / ٤٩٦ وما بعدها ، دار الكتب المصرية ١٩٢٢م .

(٢) السابق

وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدَّل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة " .

ويقول أيضاً عن صلاح الدين [١]:

" كان يبدل المذابح منائر والكنائس مساجد ، ويبوِّئْ بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد ، ويُقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلَّق النصر منه ومن عساكره بجار ومجرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزِياله إلى يوم النفخ في الصور " .

ــ إذا كانت المقالة التاريخية تعتمد على أحداث التاريخ ووقائعه ، حيث يتجه الكاتب إلى ما يراه كفيلاً بتجلية الموضوع وتمحيص المواقف وارتباطها ببعض الأشخاص الذين صنعوا التاريخ ، " فإن القاضي الفاضل " يكون قد سابق الزمان بقلمه الذي استحق أن يقول عنه صانع التاريخ والنصر " صلاح الدين الأيوبي " : و الله ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم ، ولكن بقلم " القاضي الفاضل "[٢] .

- إنك تستطيع أن تدرك مدى ما وصل إليه الكاتب من نضج فكري ، والتزام فني وديواني ، إذ يخاطب خليفة الأمة ، وهو ليس خطاباً شخصياً ، وإنما يمثل أمراً يهم الأمة كلها ، إذ تحتفل خلافةً وقيادةً بطوليةً واستجابةً لدى عامة الرعية ..

على أنه يركز في حديثه ، ويشير إلى عظمة ما تحقق ، وعظيم دور من على يديه الظفر والنصر تحقق . ولعل ذلك النصر وما يجدر بأصحابه من احتفال كان عاملاً قوياً لأن يعمل الكاتب قدرته الإبداعية ، وإمكاناته البديعة لتؤدى الفكرة القوية بصنعة يدوية مدوية ، حيث تبدو الرسالة تحفة بديعية مرصعة بألوانه ، تكاد تري فيها من كل نوع لوناً ، وهو يبالغ في ذلك لدرجةً لا

---

(١) السابق : ص ٤٩٧ .

(٢) د . شوقي ضيف : الفن ومذاهبه النثر العربي ص ٣٦٤ .

تقف عند حد الصنعة ، إذ يتخطاها إلى التصنع ملتمساً للربط بين تلك الألوان لكل منها خيطاً ، مقتبساً حيناً وحيناً يجنح إلي التورية بمصطلحات العلوم ، أو التجنيس الذي قد يتكلف له فوق التمكن الفني ما لا يمكن أن يعد عفواً .

الطور الرابع : المقال في العصرين : المملوكي والعثماني

أولاً : المقال في العصر المملوكي

إن من يطلع على نموذج واحد من أمهات كتب أدبنا القديم في هذا العصر يدرك مدى ما تحقق من رقي للفن المقالي على نحو ما تجد في المقدمة المشهورة لابن خلدون التي اشتملت على عديد من الفصول المقالية التي جاء بعضها مجموعاً على شيء من الصلة في موضوعاتها أحيانا ، أو بغير صلة في أحايين كثيرة : فمن الأول : تجد فصلاً في الإشارة إلى أمهات الصنائع ، ثم فصلاً : في صناعة الفلاحة ، ثم فصلاً : في صناعة البناء ، ثم فصلاً : في صناعة التجارة ، ثم فصلاً : في صناعة الحياكة والخياطة ...

وتجد من الثاني : فصلاً : في علم الإلهيات ، ثم فصلاً : في علوم السحر والطلمسات ، ثم فصلاً: في علم الكيمياء ... إلى غير ذلك من الموضوعات التي صاغوها في صور تعد مقالات ، إذا هى لا تفترق كثيراً عن سمت المقال الحديث وخصائصه ، اللهم إلا عامل الزمن وظروف كل عصر ومُكْنته ، حسب ما يتاح في كل عصر من وسائل اتصال أو تعليم وتواصل .

ولذا فقد صدق " العقاد " إذ يرى أن فن المقال قد تحقق في أدبنا العربي القديم من خلال " الفصل " أو " الفصول " التي زخرت بها أمهات الكتب العربية القديمة ، وأن " الفصل " كما عرفه العرب هو أقدم رائد للمقالة في الآداب العالمية .

ولم تقتصر الكتب العربية القديمة في تأليفها على اشتمالها على فصول متعددة ، بل إننا لنجد بعضها يحمل عنوانها : " الفصول " على نحو ما نجد لأبى العلاء المعرى كتاباً يحمل عنوان : " الفصول والغايات " وقد جاءت فصوله في صورة مقالات بعضها يعد أدبياً ، وبعضها يعد علمياً ، وإن اصطبغ بصبغة فلسفية.

ولما كان ذلك ثابتاً في أدبنا القديم وجدنا كثيراً من أدبائنا وكتابنا المعاصرين يستخدمونه كذلك في معنى " المقال " على نحو ما نجد لدى " العقاد " و "طه حسين " و "محمد عوض محمد " وغيرهم ، حيث وجدنا بعضهم يجمع مقالاته في كتاب بعنوان : " الفصول " وبعضهم يجمعها في كتاب بعنوان فصول في كذا ...

- ومن أمثلة هذه الفصول ــ وما أكثرها ــ في كتب علمائنا وأدبائنا القدامى ما يصلح لأن يكون مقالاً لا يكتفي بكونه مناسباً لظروف عصره فقط بل هو يناسب ــ في كثير الأمور ــ لعصرنا ، حيث يقدم رؤية متقدمة في مناهج التربية وطرق التدريس على نحو ما نجد في مقدمة "ابن خلدون" : " فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته " .

يقول ابن خلدون في بداية هذا الفصل أو هذا المقال "[١]:

" اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليــلاً قليلاً . يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هــي أصول ذلك الباب ، ويقرِّبه له في شرحها على سبيل الإجمال ، ويراعِي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهي إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ؛ إلا أنها جزئية وضعيفة ، وغايتها أنها هيأتــه لفهم الفن وتحصيل مسائله . ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيان ، ويخرج عن الإجمال ... " .

ثم يقول في عرض الموضوع [٢]:

" وقــد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته ، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٠٢ طبعة دار الشعب ، القاهرة (د - ت) .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٠٢ طبعة دار الشعب ، القاهرة (د - ت) .

ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها ، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه ...

ويكلفونه وعْى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهما .

فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثلة الحسية .

ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقـــه ، حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن ...

وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم و الوعي وبعيد عن الاستعداد له كلَّ ذهـــنه عنها ، وحسب ذلك من صعوبـــة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه . وإنما أتى ذلك من سوء التعليم " .

ثم يقول " ابن خلدون " في خاتمة هذا الفصل (١):

" ومن المذاهب الجميلة الطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم عِلْمان معا ؛ فإنه حينئذ قلَّ أن يظفر بواحد منهما ، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان ، ويعود منهما بالخيبة ، وإذا فرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصراً عليه ، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب " .

- إن الفصل أو المقال السابق يعد نموذجاً للمقال الموضوعي الذي يعالج فيه الكاتب موضوعاً ذي صبغة عامة ، يتناول قضية مهمة مثل قضية التعليم وطرق التدريس مركِّزاً على منهجية العرض ، ومنطقية التناول ، وعرض

---

(١)السابق ص ٥٠٣ .

الأفكار في صورة مترابطة متسلسلة ، واستخدام الأسلوب السهل الذي يناسب كل الطبقات التي لها صلة بالموضوع .

- ولا يعنى هذا أن النص أو المقال الذي أسماه " ابن خلدون " فصلاً قد بلغ حـــداً لا مزيد عليه ، فإنك تلاحـــظ نوعاً من التكرار والحشو الذي يمكن أن يستغنى عن كثير منه ، على أن هـــذا التكـــرار قد يكون له دوره الفني مما يعرف بالإلحاح على الفكرة حتى تثبت وتتأكـــد ، وذلك لأهميتها . على أن ذلك لا يقلل من أهمية النص وبلوغه درجـــة من النضج والرقـــى لا ينكرها إلا غير المنصف للأدب العربي وفنونـــه الراقية المتقدمة .

.....

- وهذا نموذج آخر من عصر المماليك لمحي الدين بن عبد الظاهر .

إذ يقول في رسالة له [(١)]:

" حرس الله نعمة مولاي ؟ ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرخَّم وأحمد عيشه لا ينصرف .. ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصود وممدود ، ولا خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود " .

- فأين هذا النموذج مما أوردناه في النموذج السابق لابن خلدون ؟

لقد انحدر المستوى الفني لهذا الفن المقالي على النحو الذي لم يكن ليخفى على أحد ، فأين جدة الموضوع هنا مقارنة بالسابق ؟

- وأين أهميه الفكرة التي افتقدت .. ؟ وأين جمال الأسلوب وابتكار طرائقه ؟

لقد خلت الرسالة من فكرة ذات بال ، وإن تحايل الكاتب بألوان من البديع ممزوجة بإبراز ما يُلم به من علم ومعرفة على حساب الموضوع الذي جاء

---

(١) صبح الأعشى ، ١٠/١٧٣ .

الأسلوب فيه من مجموع عدة جمل لا يجمعها سوى التلفيق الذي يعبر عن جمود القرائح وعُقْم الإبداع في هذا المجال .

ثانياً : المقال في العصر العثماني

ما من ريب في أن حال الأدب بصفة عامة والمقال بصفة خاصة لن يختلف عن حال الحياة والأحياء بصفة أعم ، حيث أصبحت مصر ولاية تابعة خاضعة للحكم العثماني ، وليس ذلك تعصباً ضد العثمانيين ، وحباً في تبعية سابقة للمماليك أو غيرهم ، وكأن مصر مجرد تابع ، وكأن قضيتها تتمثل في اختيار من تتبع ، ولكن العثمانيين أخطأوا أخطاء فادحة ، لعل أفدحها يتمثل في الآتي :

- تتريك اللغة العربية حيث جعلوا اللغة التركية لغة رسمية فترة من الوقت .
- تفريغ الولايات ممن فيها من ذوي الكفاءات العلمية والأدبية والفنية .
- عزل الولايات عن اتصالها وتواصلها بالعالم الخارجي .

لقد عم البلاد ظلام كئيب ، " وانتشر فيها جو خانق ، إذ أصبحت ولاية عثمانية بسيطة ، بعد أن كانت دوله كبيرة . ومن شأن مصر أنها لا تستطيع أن تتنفس وتزدهر فيها الحضارة إلا إذا كانت أمة مستقلة ذات شأن في التاريخ والسياسة ، أما إذا أصبحت مغلوبة على أمرها فإن أداة العقل والفن فيها تتعطل ... " [١].

ولعل ذلك هو ما جعل الشهاب الخفاجي يعترف قائلاً [٢]: " إن الأدب في هذه الأعصار قد هبت على رياضة ريح ذات إعصار ، حتى أخلقتْ عُرَي المحامد واسترخى في جَرْيه عنان القصائد ، وتقلصت أذيال الظلال ، وخطب البلاء على منابر الأطلال ، وعفا رسم الكرام ، فعليه مني السلام " .

---

(١) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ٣٨٦ .

(٢) السابق : ص ٣٨٨ .

- ومن عجبٍ أن يأتي الاعتراف السابق صورة معبرة عن حال المقال في ذلك العصر الذي لم يعد فيه مجال للتجديد والابتكار ، على نحو ما يقول الدكتور شوقي ضيف [١]: " فالقوم يعيشون على التقليد واجترار أعمال السابقين ، فإن هم تركوا هذا الاجترار والتقليد لم نكد نجد لهم شيئاً قيماً يمكن أن نعنى به ، فقد جمدت الكتابة الفنية بمصر جموداً ، بل قل قد تحجرت تحجراً ... ولم يعد من الممكن أن تعود لها النضرة أو تدب فيها الحركة ، إلا إذا تضافرت جهود هائلة إلى حتى تخرج من عالمها الكئيب المظلم إلى عالم جديد مشرق ، فيه نور ، وفيه حياةً ، وفيه بعث وأمل " .

(١) السابق : ص ٣٨٨ .

الفصل الثالث

فن المقال : ابتعاثه وتطوره في العصر الحديث

يعد هذا الفصل قسيماً للفصل السابق الذي تناولنا فيه الحديث عن نشأة فن المقال وتطوره قديماً ، وفى هذا الفصل نحاول أن نلمح بوضوح تطور هذا الفن حديثاً منذ ظهور الطباعة وانتشار الصحافة .

وصحيح أن هذه المدة تعد قصيرة جداً قياساً بالمدة السابقة في الفصل السابق ، غير أن هذه المدة قد شهدت تطورات هائلة بالنسبة لهذا الفن على مستوى الشكل والمضمون ، فبعد ظهور الطباعة وانتشار الصحافة أصبح من اليسير على القراء أن يتلقوا ألواناً وأنواعاً غزيرة من المقالات التي طفقت تنتشر بصورة دورية : شهرية ، أو نصف شهرية ، أو أسبوعية ، أو نصف أسبوعية ، أو يومية ، أو صباحية ، أو مسائية .

ولم تكن هذه المقالات في تنوعها على درجة واحدة من الجودة والنضج الفني على نحو ما كان في العصور السابقة ، حيث لم تكن كذلك من قبل على درجة واحدة . وقد بدا هذا الفن في بداية العصر الحديث ساذجاً ، بل لا يكاد يختلف عما كان عليه من جمود وتخلف إبان العصر العثماني ثم تطور ونضج حتى وصل إلى درجات عظيمة من الرقي والازدهار .

النهضة الأدبية فى العصر الحديث وأثرها في المقال :

كانت الرسائل والكتابات النثرية منذ ظهور طريقة " ابن العميد " و " القاضي الفاضل " ومن سار على طريقتهما تؤْثِر الصنعة البديعية والزينة اللفظية ، والتزام السجع ، غير أنه مع مرور الزمن بالغ الكتاب في استخدام المحسنات اللفظية على حساب المعنى ، وساءت أحوالها حتى تدنت إلى دركات في غاية الزراية إبان الحكم العثماني حتى بداية العصر الحديث ونشأة الطباعة وظهور الصحف التي بدأت تنتشر فيها الكتابات النثرية تحت اسم المقال .

وقد كانت المقالات في بداية عصر النهضة تكتب بأسلوب لا يبعد كثيراً عما كان سائداً في العصر العثماني الذي أصاب اللغة وفنون الأدب فيه ما أصابها من تخلف وهمود ، فغلب عليها ضحالة التفكير ، والمبالغة في التطويل والحشو دون فائدة .

وحين بدأت النهضة [١]تؤتي ثمارها ظفرنا بطائفة من الكتاب جعلوا يحررون كتاباتهم من قيود الصنعة متخذين من الصحافة - تلك الوسيلة الجديدة - أداة لتوصيل آرائهم وأفكارهم إلى مواطنيهم " [٢].

لم يكن من الممكن أن يتجه الكتاب آنذاك إلى جمهور المواطنين عن طريق الصحف بتلك اللغة المتكلفة الملتوية ، على أنهم لم يتخلصوا من ذلك دفعة واحدة ، وإنما استغرق ذلك أوقاتاً ، ومرَّ بمراحل وأطوار على سبيل التدرج والتطور كي يتجاوزوا تلك المعوقات والآفات شيئاً فشيئا حين ارتبطت مقالاتهم بالحياة والأحياء ارتباطاً وثيقاً تأثراً وتأثيراً ، حتى استوى فن المقال نابضاً حيًّا قويًّا ذائعاً مزدهراً .

(١) للنهضة عوامل كثيرة منها : انتشار المطابع والصحف ، وإحياء كتب التراث ، والتوسع في التعليم بإنشاء العديد من المدارس المتنوعة ، وإرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا ...

(٢) د.عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر ج١ ، ص١٧٢ .

الطور الأول :

تطور المقال من بداية النهضة إلى بداية ولاية إسماعيل ١٨٦٣م

الأدب نتاج الحياة وتعبير عن بيئته التي نبع من فكر مبدعيها الذين لم يكن في إمكانهم إلا أن يعبروا عن الإطار الذي أتيح لهم ، غير أن ذلك لم يُتَح إبان الحكم التركي الذي جعل الشعب المصري في عزلة عما تنعم به الحياة من تطور وابتكار ورقي وازدهار قرابة ثلاثة قرون ، حتى صاروا كأنهم موتى قد اقتربت مدة لبْثهم في عزلتهم وتخلفهم من مدة لبْث أهل الكهف في كهفهم . قال تعالى :

﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾. (١)

لم يكن من اليسير أن تتحقق النهضة طفرة واحدة ، إذ إن النهضة لم تكن لتتحقق من خلال سبيل واحد ، فلم يكن الغرض من إرسال البعثات تعلُّم العربية في بلاد أوربا ، أو الاقتباس من آدابها وفنونها فحسب ، تلك التي قطعت أشواطاً وأشواطاً نحو التقدم والرقي .

على أن الكُتاب لم ينفكوا يكتبون مقالاتهم فترة ليست باليسيرة في موضوعات (٢)تحفل بالعبارات المسجوعة ، والألفاظ الغثة التي لا تكاد تنأى عن العامية ، أو تخلص من الألفاظ الأجنبية في صور ، متكلفة ، وإن كنا نلمح بعض المحاولات تنتفض فيها روح النهوض - على تدرُّج حثيث - في بعض كتابات الشيخ " حسن العطار " (٣)وتلميذه " رفاعة الطهطاوي " (٤) الذي حاول - بعد أن أثمرت توجيهات شيخه ، وحركة ابتعاثه إلى أوربا ، وقيامه بعديد من

---

(١) القرآن الكريم : سورة الكهف ، آية رقم ٢٥ .

(٢) لم أشأ أن أسجل بعض هذه النماذج رغبة في عدم إهدار الوقت فيما لا يرقي إلى مستوى الدراسة.

(٣) من كبار علماء الأزهر ، وممن تولوا مشيخته ، توفي العطار سنة ١٨٣٥م .

(٤)ولد في طهطا سنة ١٨٠١م . تتلمذ في الأزهر لكبار العلماء خاصة الشيخ العطار . اختير رئيساً للبعثة إلى فرنسا ، ولما عاد أسند إليه إدارة الألسن التي كانت تعد كلية للآداب والترجمة والحقوق والتجارة معاً . توفي سنة ١٨٣٨م .

الترجمات ــ أن يتخلص من كلفة المحسنات ، ليترسل في كتاباته ، على أنه [١] لم يتخلص من ذلك دفعة واحدة .

ويمكننا أن نلمس ذلك بوضوح من خلال نموذجين : أحدهما للشيخ " العطار " والثاني لتلميذه " رفاعة " فيما يلي :

يقول الشيخ العطار في رسالة له [٢]:

" .. فإن أحسن وشيٍ رقمته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه الأكمام ، عاطر سلام تفوح بعبير المحبة نفحه ، ويشرق في سماء الطروس صبحه . سلام عاطر الأردان ، تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد : صاحب الأخلاق الحميدة ... " .

- والألفاظ - كما ترى - تبدو منتقاة متأنقة ، والتراكيب سليمة ، إلا أنه لا يخفى مدى اهتمامه بالزينة اللفظية ، إذ يلتزم السجع ، ولا ينفك يستخدم بعض المفردات القوية الجرس على الآذان ، بعيدة المعنى على الأفهام ..

ويقول " رفاعة " في كتاباته عن الدستور الفرنسي [٣]:

" إن سائر الفرنسيين متساوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون ، حتى إن الدعوة الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر إلى هذه المادة فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل ، وإسعاف المظلوم ، وجبر خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً إلى إجراء الأحكام . ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهي من الأدلة الواضحة

---

(١) سبق (رفاعة الطهطاوي) ببعض كتابات رائدة في (الوقائع) ثم في روضة المدارس ، ولكنها لم تتخلص تماماً من المعوقات التي لم تجعلها مقالات مكتملة . انظر : أدب المقالة الصحفية في مصر للدكتور (عبد اللطيف حمزة) ج١ ، ص١٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر إنشاء العطار ، ص ١٢ ، القاهرة ١٩٠٤ م .

(٣) انظر تخليص الإبريز ص٨٠ ، القاهرة ١٩٥٥ .

على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم في الآداب الحضرية ... "
.

- إن ترسل الكاتب في النموذج السابق وتطوره في كتابته ، وابتعاده عن التكلف يجعلنا نشعر بشئ من التطور في الكتابة عن ذي قبل ، فالكاتب قد شغله موضوعه عن أي زينة شكلية ، اللهم إلا الوضوح في الألفاظ ، والقوة في الأداء والعفوية والترسل في العبير الذي مزج فيه بين جلال الموضوع وجمال الأسلوب .

إن حركة تطور فن المقال ، حيال ما شرع يتهيأ أمام تلك الألوان من روافد الثقافة والتعليم وبعْث اللغة لا تمثل سوى انتعاش هذا الفن بعض الانتعاش تبعاً لانتعاش اللغة التي شرعت تبدو لغة العلوم الحديثة ، والصحافة الجديدة ، وتخلصت نوعاً ما من الركاكة والتكلف "[١].

وليس ثمة مبالغة فيما سبق ذكْره ؛ فلم تكن الصحف قد تهيأ لها الانتشار ، كما كانت حركه المطابع في بداية عهدها ، فقد أنشئت المطبعة الأميرية سنة ١٨٢٢م ، ثم أنشئت جريدة " الوقائع المصرية " . وكانت تُحرَّر أولاً بالتركية والعربية ، ثم صارت تكتب بالعربية وحدها "[٢] .

(١)جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٣ ، راجع ص٦٣ وما بعدها .
(٢)السابق : ج٣ ، ص٦٣ .

الطور الثاني :

تطور المقال من بداية ولاية إسماعيل ١٨٦٣م إلى بداية الاحتلال ١٨٨٢م

مع بداية ولاية " إسماعيل " أنشئت مدارس عديدة ، ونمت الحركة التعليمية نمواً كبيراً ، فكان لها أثرها في إنماء الوعي القومي ، وتزكية الشعور لدى كثير من المثقفين بعظمة بلادهم ، وعراقة تاريخهم ، ورُقيَّ تراثهم ، و " أنهم ليسوا عالة على ما جاءهم من ثقافات الغرب الذين أصبحوا يمثلون السيطرة والاستغلال ، والغطرسة والتعالي " [١].

شرع كثير من مثقفينا يواجهون الثقافة الدخيلة بثقافة عربية أصيلة [٢]، فعمدوا إلى جمهرة من روائع تراثنا لإحيائه ونشره مثل : خزانة الأدب ، والبيان والتبيين ، وتفسير الفخر الرازى والأغاني للأصفهاني ، والعمدة لابن رشيق ، ومقامات الهمذاني والحريري وشرح التنوير .. ، وغير ذلك كثير من روائع الشعر والأدب واللغة .

في هذه الأثناء بدأت الحركة الصحفية تنشط ، و تنتشر ، حيث سمح لبعض الصحف و المجلات بالظهور[٣]، على أن الصحافة شرعت تتفلت من إسار الصبغة الرسمية[٤]الموشاة بالفرمانات الخديوية ، إذ تدلف إلى غمار السياسة والتعبير عن المجتمع .

---

(١) د : أحمد هيكل : تطور الأدب ص٤٦ ، ٤٧ .

(٢) السابق : ص٤٦-٤٧ .

(٣) مثل " روضة المدارس " و " اليعسوب " . والأولى منهما : كانت مجلة ثقافية نصف شهرية ، يفسح المجال فيها لمحاولات التلاميذ الأدبية ، والثانية منهما ، كانت مجلة طبية شهرية . (تاريخ آداب اللغة العربية لجوهري ح٤ ص٥٥) .

(٤)كانت أقدم صحيفة على هذه النحو هي " وادي النيل " ثم تلتها " نزهة الأفكار " ثم " الوطن " ثم " أبو نضارة " وكذلك الصحف التي أنشأها بعض الشوام إثر هجرتهم إلى مصر مثل " الأهرام " لسليم وبشارة تقلا ، وغيرها (تاريخ آداب اللغة العربية لجوهري ح٤ ص٥٥) .

ولا يمكن أن يغفل دور " جمال الدين الأفغاني " الذي وفد إلى مصر آنذاك ، فقد أثَّر في تلاميذه بتوجيهاته ودعواته التحررية والإصلاحية إلى أن ينأوا عن التكلف في مقالاتهم ، ويؤثروا الترسل ، ويحفلوا بحقائق العلم ، دون أن يتخلوا عن الأصالة ، وقد بدا ذلك واضحاً في محاولات تلاميذه من خلال مقالاتهم التي أيقظت الغافلين ، وزلزلت المعتدين .

- وهذا نموذج للشيخ " جمال الدين الأفغاني " من مقالة أو رسالة له يدعو فيها الشرق إلى اليقظة ، ومواجهة الاحتلال والعدوان .

يقول جمال الدين الأفغاني (١):

" ألا أيها النائمون تيقظوا ...

ألا أيها الغافلون تنبهوا ...

يا أهل الشرق والناموس ، ويا أرباب المروءة والنخوة . ارفعوا رؤوسكم تروا بلاءً منصباً على أوطانكم ، وما أنتم ببعيد منه ، ولا بمعزل عنه وإن لم يصبكم اليوم فسيصيبكم غداً . تساهلتم عن الذود عن حقوقكم المقدسة ، لهوتم عما أضمر لكم الأعداء الإنجليز ، أصبحتم على شفا جرف المذلة ، ويخشى أن يقذف بكم بعد قليل في جحيم العبودية .

ألا إن وقت التدارك ما فات ، فالأرواح في الأجساد والعقول في الرؤوس، والهمم في النفوس، فالثبات الثبات ، وحذار من التواني والتقاعد ".

- والمقالة أو الرسالة السابقة على إيجازها إلا أنها قد جمعت بين أدوات الاستفتاح والتنبيه والاستنهاض ، وبين الحث الدافع المؤثر .

- وهي كذلك تجمع بين الخبر التقريري التحذيري ، والخبر الثابت الواثق في القدرة على المواجهة وتحقيق الغاية، غير أنه يحذر من التقاعس.

---

(١) معالم المقال الأدبي والصحفي : د. عبد الرحمن عبد الحميد ، ص ٢٥-٢٦ .

وقد عبر عن ذلك كله في أسلوب قوي التعبير ، سامٍ في التفكير ، لا تكلف فيه ولا تعقيد ، إذ يؤْثر الترسل والتحرر لغةً وأدباً وفناً داعياً إلى تحرر أسلوب الحياة .

وقد كان " محمد عبده " [(١)] **من تلاميذ " الأفغاني " المقربين** ، فكان له دور كبير في تخليص لغة النثر عموماً من كثير من آفاتها حيث آمن بالتخلص من تلك الآفات المعوقة لترسل اللغة وانطلاقها في قوة وحيوية .

وإذا كان قد ثبت أن " محمد عبده " لم يكن مترسلاً في كتاباته الأولى ، إلا أنه حين تخلص من أثقالها لم يكتف بإيثار الترسل و الموضوعية في مقالات تعد نماذج رائدة إلى حد كبير ، بل كان يحث غيره من الكتاب على الأخذ بهذا الأسلوب الحي المرسل[(٢)].

يقول الشيخ محمد عبده في مقال له بعنوان " خطأ العقلاء " [(٣)]:

" إن كثيراً من ذوي القرائح الجيدة إذا أكثروا من دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة ، تتولد في عقولهم أفكار جليلة ، وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة ، تندفع إلى قول الحق ، وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها .

ولكونهم اكتسبوا هذه الأفكار ، وحصلوا تلك الهمم من الكتب والأخبار ، ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك ، تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذي وصلوا إليه ... هو أمر سهل ، مثل سهولة فهم العبارة عليهم ،

---

(١) ولد بمحافظة البحيرة سنة ١٨٤٩م . حفظ القرآن ، وتلقى تعليمه الأزهر ، ثم تولى التدريس فيه .. ، ثم في دار العلوم ، ثم أشرف على الوقائع المصرية ، وإبان الاحتلال الإنجليزي نفي إلى سوريا ، ثم سافر إلى فرنسا حيث لقي أستاذه الأفغاني ، فأصدرا " العروة الوثقى " ، ثم عاد إلى مصر فتقلد الإفتاء ، وبذل جهوداً عظيمة في تطوير الأزهر ، وإصلاح المجتمع ، و تقويم الفكر الديني ، توفى سنة ١٩٠٥م .

(٢) أدب المقالة الصحفية ، ج٢ - ص٦٢ وما بعدها .

(٣) أدب المقالة الصحفية : د. عبد اللطيف حمزة ، ج٢ ص٨٣ وما بعدها .

وقريب الوقوع ، مثل قرب الكتب من أيديهم ، والألفاظ في أسماعهم ، فيطلبون من الناس طلباً حاثاً ، أن يكونوا على مشاربهم ، ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم ...

ويظنون أن أفكارهم العالية إذا برزت من عقولهم إلى حيز الكتب والدفاتر، ووضعت أصولا وقواعد لسير الأمة بتمامها ، ينقلب بها حال الأمة من أسفل درك في الشقاء إلى أعلى درج في السيادة ، وتتبدل العادات وتتحول الأخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادى على الناس باتباع آرائهم . تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب و المطالعات .

وإنهم إن كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته ، وارتفاع الهمة وانبعاث الغيرة ، لكنهم أخطأوا خطأ عظيماً ، من حيث إنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه ، وبين طبيعة الأمة التي يريدون إرشادها ، ولم يختبروا قابلية الأذهان ، واستعدادات الطبائع للانقياد إلى نصائحهم ، واقتفاء آثارها " .

- إن أوجز ما يوصف به المقال السابق : هو الرقي ، والصدق ، والعمق .

وقد جاء ذلك كله في أسلوب سهل ممتع ، وحرية وترسل .

قد جمع بين الجمال العفوي والجلال الداعي إلى إصلاح عام ، حيث لا يكتفي كما هي العادة بالدعوة إلى إصلاح شأن العامة ، إذ هو يدعو إلى إصلاح شأن الخاصة لتكون الدعوة إلى الإصلاح عامة ، ولذا أستحق أن يلقب - في زمانه - بالإمام ، إمام المصلحين .

ولذا يعد دور " محمد عبده " في إحيائه للنثر شبيهاً بدور رفيقه ومعاصره " البارودي " في إحيائه للشعر .

وما من شك - كنتيجة طبيعية - أن فن المقال المعبر عن تلك الأحوال قد قطع كذلك شوطاً لا بأس به نحو التطور و النهوض في محاولة دائبة

ومتطلعة إلى الرقي بالتخلص من الآفات اللفظية ، تشبثاً بأسباب الموضوعية والتحرر .

الطور الثالث :

تطور المقال من بداية الاحتلال إلى قيام ثورة ١٩١٩م

مع وقوع مصر في أسر الاحتلال تدهورت حركة التعليم الذي باتت الإنجليزية لغة له ، حتى نجح المصريون في إعادة اللغة العربية من جديد إلى التعليم سنة ١٩٠٨م [١].

على أنه قد أُخمدت أنفاس الصحافة لأقل شبهة في معاداة الإنجليز أو الخديو ، فمُنعت " العروة الوثقى " من دخول مصر ، كذلك أُلغيت صحيفة " الوطن " و " مرآة الشرق " .. وعُطلت (الأهرام) بعض الوقت [٢]، وبات كتاب المقال الغيورون على لغتهم وهويتهم مضطهدين ، فنال ذلك من حركة تطور فن المقال ونهوضه ، وإن لم تتوقف تماماً ، حيث سُمح بعد ذلك بإنشاء بعض الصحف لقيام بعض الأحزاب السياسية بغاية تأجيج الخصومات وتفريق شمل الأمة[٣].

ولكن رب ضارة نافعة ، إذ لم يستطع المحتل - بهذه الوسيلة أو تلك - أن يثنى الرواد عن مواصلة مسيرة الإصلاح والنهوض ، وقد أثمر ذلك بروز طائفة من الكتاب ذوى الأقلام المناضلة يبعثون الأمل في النفوس ، ويؤثرون في الوجدان ، وينادون بالخلاص ، و يبعثون روح الحرية في مقالات اجتماعية إصلاحية وحماسية ثائرة ، كما في مقالات " مصطفى لطفي المنفلوطي " والزعيم" مصطفى كامل " و " الشيخ علي يوسف "[٤] .

- وهذا نموذج للمنفلوطي من مقال له بعنوان " الحرية " . يقول فيه [٥]:

---

(١) د. عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ج٢ – ص ٤٥ .

(٢) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن - ج١ ــ ص٢٩٠ .

(٣) مصر والسودان من أوائل عهد الاحتلال البريطاني : عبد الرحمن الرافعي ص١٦١ وما بعدها ، القاهرة ١٩٤٢ .

(٤) انظر مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي : ص٢٥١ .

(٥) مصطفى لطفي المنفلوطي : النظرات ، ص ٨٦ ، ط١ ، لونجمان ١٩٩١م .

" استيقظت في فجر هذا اليوم على صوت هِرّة تموء بجانب فراشي ، وتتمسح بي ، وتلحُّ في ذلك إلحاحاً غريباً ، فرابني أمرها وأهمني همها ، وقلت : لعلها جائعة فنهضت وأحضرت لها طعاماً ، فعافته وانصرفت عنه ، فقلت : لعلها ظمآنة ، فأرشدتها إلى الماء فلم تحفل به ، وأنشأتْ تنظر إليَّ نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان ، فاثَّر في نفسي منظرها تأثيراً شديداً حتى تمنيت أن لو كنت " سليمان " أفهم لغة الحيوان ؛ لأعرف حاجتها وأفرِّج كربتها . وكان باب الغرفة مقفلاً فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتتلصق بي كلما رأتني أتجه إليه .

فأدركتُ غرضها ، وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب ، فأسرعت بفتحه ، فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهمٍّ إلى غبطة وسرور ، وانطلقتْ تعدو في سبيلها . فعدتُ إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي ، وأنشأتُ أفكر في أمر هذه الهرة ، وأعجب لشأنها وأقول: ليت شعري ! هل تفهم الهرة معنى الحرية ... ؟! " .

ثم يقول [١]: " لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه ، وأدرك حقيقة حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود ، لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص ... " .

و يقول أيضا [٢]:

" الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس ... الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال " .

ثم يقول في خاتمة المقال [٣]:

---

(١) مصطفى لطفي المنفلوطي : النظرات ، ص ٨٦-٨٧ ، ط١ ، لونجمان ١٩٩١م .

(٢) السابق

(٣) مصطفى لطفي المنفلوطي : النظرات ، ص ٨٧ ، ط١ ، لونجمان ١٩٩١م .

" ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً ، أو طارئاً غريباً ، وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار .

إن الإنسان الذي يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجدٍ ، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ... " .

- لقد نجح الكاتب من خلال مقاله السابق في أن يصل إلى غايته عن طريق أسلوب ذي منزعٍ قصصي تصويري أثير مثير ، يعبر عن الواقع مع الغوص في أعماق التاريخ ــ ويتعامل مع مفرداته بذكاء وطرافة وحيوية في سهولة وعمق ، وترسل ووضوح بعيد عن تكلف البديع ، اللهم إلا ما جاء عفو الخاطر ، في أسلوب سهل ممتنع قد غدا به صاحبَ طريقةٍ فنية مميزة يعرف بها في كتابة فن المقال ، من خلال تمكُّنه وصدقه في ما يكتب بقلبه قبل قلمه الذي جمع له بين تقدير العامة والخاصة ، وذلك لنجاحه في الجمع بين الأصالة والتطور ، والقدرة العجيبة التي تمثلت في موضوعه هذا ، إذ يعبر عن الحرية في هدوء عنيف !!

جعل طائفة من أولئك الكتاب يدعون إلى إحياء فكرة الخلافة الإسلامية ، ولذا كان كتّاب هذا الاتجاه يرفضون فكرة القومية ، أو غيرها من الأفكار التي تفصلهم عن غايتهم .

وكان يمثل هذا الاتجاه الحزب الوطني الذي تألف سنة ١٩٠٧م ويقوده " مصطفى كامل " [١]وقد اتخذ صحيفة اللواء لسان حاله .

وهذا نموذج لواحد من رواد هذا الاتجاه ممثلا في مقال للشيخ " علي يوسف " يدافع عن أمته ، وينفي عن نفسه ووطنه دعوى تعصب المصريين دينياً .

يقول الشيخ علي يوسف [٢]:

" قالوا : إن المصريين متعصبون تعصباً دينياً ، ومعنى هذا أنهم يكرهون المخالفين لهم في الدين ، كراهة عمياء ، يعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية كلما سنحت لهم فرصة الافتراس ، أو استفزهم صائح ...

في البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها في المنازل ، ويتشاركون في المرافق ، ويتنافسون في الأعمال ، فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة ، ولو كانت في فطرة المسلمين أو فطرة الفريقين لتلاشت الأكثرية الأقلية في عصور مضت ، وخصوصاً في عصور كانت الجاهلة فيها سائدة ...

قدم على القطر المصري منذ أول عهد المرحوم محمد علي باشا الكبير وفود من كل الطوائف المسيحية شرقية وغربية ، فلقي الكل في مصر صدراً رحباً . كان منهم الموظفون في كل مصلحة حتى تولى نوبار باشا رئاسة النظار ... وهو أرمني ، وكان قائمَقام الخديوي ورئيس الاحتفال بموكب المحمل الشريف ، فهل يوجد في أمة غير الأمة المصرية مثل هذا التساهل ... ؟

---

(١) ولد فى القاهرة سنة ١٨٧٤م . درس الحقوق ، وأكمل تعليمه في فرنسا ، زلزلت خطبه الثورية ، ومقالاته الحماسية التي راح يبثها داخل مصر وخارجها كيان الاستعمار .

(٢) د. عمر الدسوقي : دراسات أدبية ، ص٢٢٢ ، طبعة نهضة مصر .

وكان من علمائهم الأساتذة ، والمعلمون ، ونظار المدارس ، والمكتشفون ، فهل الأمة التي تربى أبناءها على أيدي أساتذة من غير دينها تعد متعصبة ؟ " .

- بدا موضوع المقال جليلاً كما ترى ؛ إذ يعالج قضية من أخطر القضايا التي اختلقها الاحتلال والعدوان .

وقد نجح الكاتب في معالجة هذه القضية معالجة نموذجية ، إذ يقرر الأمر ، ويكشف خطورته مستفهماً مستنكراً ، ثم هو لا يقنع بأساليب الاستفهام والاستنكار ، كما لا ينأى عن بؤرة القضية متعللاً بزينة لفظية ، أو تهويمات خيالية ، وإنما هو يسعى إلى معالجة الفتنة بأدلة تاريخية ، وحجج دامغة قوية يفضح بها تلك المحاولات الدنيئة لتبقى مصر وأهلها نموذجاً فريداً منذ أشرقت عليها شمس الخير والمحبة والسماحة بنور الإسلام .

في العام الذي تألف فيه الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل تألف في العام نفسه حزب آخر يمثل اتجاهاً آخر في كتابة فن المقال ، وهو " حزب الأمة " وكان يتزعمه " لطفي السيد " [(١)] الذي اتخذ صحيفة " الجريدة " لساناً يعبر عن أفكار رواده الذين راحوا ينادون بأنه لا ولاء إلا لمصر ، وأن مصر للمصريين .

وقد كان رواد هذا الاتجاه يرون أن فكرة الخلافة الإسلامية غير ممكنة لما كان عليه الخلفاء الأتراك من فساد . ورغم إيمانهم بضرورة إجلاء المحتل إلا أنهم جعلوا يولُّون وجوههم شطر البلاد التي نشأت فيها القوميات ، وازدهرت فيها مدنيات حديثة استطاعت أن تبهر الأبصار ، ومن هنا تلونت مقالاتهم بطابع غربي أوربي واضح ، فنادوا في مقالاتهم : بفصل الدين

(١) ولد في المنصورة سنة ١٨٧٢م . تعلم في الكتاب ثم في المدرسة الخديوية ، ودرس الحقوق . ثم عين في النيابة . سافر إلى أوربا ، ثم عاد إلى مصر فتقلد مناصب عديدة منها : إدارة الجامعة ، ووزارة المعارف ، وترأس المجمع اللغوي . توفى سنة ١٩٦٣م .

عن الدولة ، وفكرة الوطنية بمفهوم عقلي مصلحي ، لا بمفهوم وجداني حماسي . كذلك دعوا إلى تفسير نصوص الدين بما يلائم الحضارة ويتفق مع التطور[١].

وهذا نموذج لـــ " أحمد لطفي السيد " أحد رواد هذا الاتجاه في مقال له بعنوان " الرياء " يتحدث فيه عن عيوب المجتمع المصري .

يقول أحمد لطفي السيد [٢]:

" أرأيت الذي يقول رأيه في مسألة بعينها ، ولا يلبث أن يغيره من غير سبب إلا شغفه بإرضاء عظيم ينتظر نفعه ويخشى غضبه ، أو اتقاء لأن يعلَن عنه أنه غير محب لوطنه ... ؟

لست أنتزع من الخيال صورة هذا الذي أصفه كما يصنع الشعراء ، ولكني ناقل من الطبيعة صورة قد شاعت في الناس شيوعاً ، لا أظن السكوت على محاربتها إلا ضرباً من السكوت عن الحق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

هذه الرذيلة - رذيلة الرياء ــ يستخدمها بعض الناس وسيلة للنجاح في الحياة .

وهي وسيلة نافعة في البلاد الاستبدادية التي يتوقف نجاح الفرد فيها ــ مهما كان كفؤاً ــ على رضا السلطان وأعوانه ، ولا شيء يرضي السلطان غير العبادة .

والذي يرضى بأنه يبيع نفسه عبداً ليشتري بثمنها قوتاً يعيش به أستبعد كثيراً أن يكون حافظاً للصورة التي خلقه الله عليها ، صورة الإنسان ذي الشخصية ، صورة الحرية .

---

(١) تطور الأدب الحديث في مصر : راجع ص١٠٣ .

(٢) الجريدة ، عدد أول فبراير سنة ١٩٠٨م .

وما مثل هذا الناجح بريائه إلا كمثل الذي ينجح في الحصول على الثروة عن طريق السرقة ، فبئست الوسيلة وبئست الغاية .

قال أرسطو : خُلق بعض الناس ليكون حاكماً ، وخلق بعض الناس ليكون محكوماً . ولكنا نظنه قد أخذ هذه القاعدة من ملاحظته الشخصية لبعض قومه ، ولأخلاق جيرانهم من الأسيويين . وهذه الملاحظة لا تكفي وحدها لتقرير قاعدة عامة مثل هذه القاعدة ، لذلك نقول ، إن الله فطر الناس على فطرة واحدة أو متقاربة الفروق جداً ، أنهم جميعاً فُطروا على الحرية الشخصية " .

- صدق من قال عن صاحب هذا المقال : " إنه أستاذ جيل ، وصاحب فكر ، ورائد أسهم في نهضة مصر الفكرية والسياسية والاجتماعية "[(١)] . وهكذا جاء مقاله السابق معبراً ــ من خلال فلسفته الراقية ــ عن إيمان عميق بقيمة ما يقول ، إذ يهدف دائماً إلى تحقيق الرقي على مستوى الفرد والأمة والإنسانية كلها .

وقد نجح في مقاله أن يمزج بين الفلسفة نظرياً والواقع عملياً مستثمراً إمكاناته اللغوية والعلمية والصحفية في خدمة الفرد والمجتمع واثقاً بما لديه وما ورثه في مواجهة أي فكر وأي فلسفة مهما بلغا .

وقد عبر عن ذلك بأسلوب رائق مترسل في حرية لا يشوبها تكلف ، ولا تتدثر بدثار من ملق الزينة التي تخدع البعض عن بلوغ الحقيقة .

- ومهما يكن من أمر فقد شهدت تلك الفترة تطوراً كبيراً على مستوى فن المقال الذي احتوى تلك الظروف وعبر عنها في أحوالها المختلفة ، من خلال طرق فنية واضحة ، إلى جانب طريقة المنفلوطي[(٢)]في كتابة المقال كانت هناك طرق أخرى ، غير أنها لم تكن على درجة " المنفلوطي " من الذيوع

---

(١) د.السيد مرسي أبو ذكري : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ص٢١٤ دار المعارف ١٩٨٢م .

(٢) ولد بمنفلوط في أسيوط ١٨٧٦م . تعلم في الأزهر ، وحضر دروس محمد عبده ، وكبار المفكرين ، حتى صار من كتاب المؤيد البارزين ، وظل الكاتب المفضل لسعد زغلول حتى توفي في ١٩٢٤ .

والتأثير ، حيث كانت بعض هذه الطرق منها ما يزال يتشبث بأثمال الماضي على الطريقة التقليدية المحتفلة بالسجع وأسلوب المقامات كما في كتابات السيد توفيق البكري في " صهاريج اللؤلؤ " وأحمد شوقي في " أسواق الذهب "[١] ، وإن لم ينكر احتفالها بألوان من الجدة والطرافة ، غير أنها في أسلوبها لم تعد تواكب متطلبات العصر ومنجزاته .

(١) وهذا نموذج من " أسواق الذهب " لشوقي " . يقول فيه تحت عنوان المال :

" يا مال الدنيا أنت ، والناس حيث كنت ، سحرت القرون ، وسخرت من قارون ، وسعرت النار يا نيرون ، تعود الحقد أن يحالفك ، وكتب على الشر أن يخالطك ويؤالفك ... تُزرى بالكرام ، وتُغرى بالحرام ... حالك وحال الناس عجب ، تملكهم من المهد ويقولون : أصبنا وملكنا ، وترثهم عند اللحد ، ويقولون : ورثنا وتركنا ... كثيرك همّ ، وقليلك غم ، ومع التوسط الخوف والطمع ، والحرص والجشع حذر النفاد ، ورغبة في الازدياد . الملك سوقة إذا نزل إليك ، والسوقة ملك إذا علا عليك ... العريان من ليس له منك سترة ، والمستضعف من ليس له منك قدرة . فسبحان من قهر بك الخلقْ ، وقهرك برجال الخُلق ... - أسواق الذهب ، ص٦٧ ، ط دار الهلال ، القاهرة ١٩٣٢م " .

الطور الرابع :

تطور المقال من قيام ثورة ١٩١٩م إلى قيام ثورة ١٩٥٢م

نمت الحياة الثقافية بعد ثورة ١٩١٩م وحدثت تطورات عديدة ، فبعد هزيمة (تركيا) في الحرب العالمية الأولى وإخفاق فكرة الخلافة ، أصبحت السيطرة الحزبية بعد ذلك لحزب (الأمة) الذي تغير اسمه إلى (الوفد) لبروز أعلامه في تبني قضية الوطن والمطالبة بإنهاء الاحتلال . وتحولت فكرة الجامعة الإسلامية إلى فكرة الجامعة العربية .

في بداية هذه المرحلة قامت أحزاب جديدة وظهرت صحف كثيرة تعبر عن رؤيات وأهداف أصحابها .

على أن قوى الفساد والعدوان كثيراً ما كانت تعمل على تعطيل الحياة السياسية والثقافية بتلفيق المؤامرات [١] حتى استطاعت في كثير من الأحيان أن تبذر بذور الفرقة بين جموع الشعب ورموزه ورواده الذين باتوا شيعاً وأحزاباً بعيدين عن الهدف .

وإذا كان فن المقال قد عالج ما يكتنف الحياة آنذاك من اضطرابات فكرية لا تقل في حدتها عن ثورة الشعب ومعركته مع العدوان والفساد ، حيث تمثل ذلك على صفحات الصحف والمجلات في معارك ثقافية وفكرية جرّاء دعوات مندفعة لا تكاد ترى وجه الحق إلا بعد جهد ، على نحو ما كان من المؤمنين بفكرة القومية إذ يدعون إلى خلق أدب قومي ، كما دعا بعضهم إلى استلهام

---

(١)كان الشعب يتصدى لكل هذه المحاولات ، على نحو ما كان من (العقاد) إبان تأليف الوزارة ١٩٣٠م . فقد كان من المتوقع - كما هي العادة- حل البرلمان وتعطيل الدستور ، فكان مما قاله (العقاد): إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور ، أو يعتدي عليه .

وكان من الواضح أن المقصود هو (الملك فؤاد) فدبَّر للعقاد قضية عيب في الذات الملكية ، وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر - اقرأ إن شئت عن ذلك لشوقي ضيف : العقاد ، دراسة وتحية ص٦٤-٦٥ .

الماضي الفرعوني ، وكذا نادى بعضهم باتباع الغرب[١]حيناً ، وبالارتباط بشعوب البحر الأبيض [٢]حيناً آخر .

وهذا نموذج للدكتور " محمد حسين هيكل " من مقال له بعنوان " بعد قرار العلماء " يخاطب فيه الشيخ " علي عبد الرازق " ، ويسخر من الحملات ضد كتابه" الإسلام وأصول الحكم " . **يقول هيكل** [٣]:

" تعال نضحك .. فقد كان كتابك مصدر لتنفير الأرثوذوكسية في الإسلام [٤] ، ولست أنت الذي غيرها أيها الصديق المسكين ، وإنما غيرها الذين طردوك وأخرجوك من الأزهر . نعم . كان أهل السنة ومازالوا يرون أن الخلافة ليست ركناً من أركان الدين ، وأن الشيعة فسقوا حين عدُّوها كذلك ، فلماذا قلت للناس في كتابك ما أجمع عليه أهل ؟ السنة غضب عليك أهل الأزهر ، ورموك بالابتداع والإلحاد . وأخذوا يقولون : إن الخلافة أصل من أصول الدين . وقد كنا نعلم أن القاهرة مركز أهل السنة وموطن الأشاعرة، ومستقر الأرثوذكسية الإسلامية. فسبحان من يغير ولا يتغير ! " .

---

(١) من هؤلاء د.محمد حسين هيكل ، ومحمود عزمي ، وسلامة موسى ، إذ يقول في كتابه " اليوم والغد " : (كلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها ، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها . هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً وجهراً ، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب .. ــ راجع مقدمة كتاب اليوم الغد) .

(٢) من هؤلاء د. طه حسين ، إذ يؤكد في أكثر من موضع في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر " : (إننا لسنا شرقيين في حضارتنا أو تفكيرنا من أقدم عصور التاريخ ، ولكننا ننتمي إلى حضارة البحر الأبيض ... ثم يقول : إن سبيل نهضتنا هو أن نسير سيرة الأوربيين لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة : خيرها وشرها ، حلوها ومرها . ــ أقرا إن شئت نقداً موضعياً لمثل تلك الآراء قي كتاب : " دراسات ونصوص في الأدب العربي " ل د. محمد مصطفى هدارة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٥م .

(٣) مجلة السياسة : عدد ١٤ أغسطس ١٩٢٥م .

(٤) يقصد الكاتب - سامحه الله - بالأرثوذوكسية في الإسلام : المذهب السني .

ــ كشف المقال السابق بوضوح عن شخصية قائله المتحررة الواثقة بما لديها من إمكانات علمية ومقومات فنية ، إذ يعالج موضوعاً خطيراً في جرأة سافرة وقدرة على المناقشة .

على أن الكاتب قد تحلّى بروح ساخرة رغم جدة الموضوع ، وما عُرف به الكاتب من تحلٍّ بالموضوعية واستخدام الأسلوب العلمي ، حيث جنح إلى سخرية فيها من الشطط ما فيها .

لقد وصل الأمر إلى حد النيل من الأزهر الشريف ، والإسلام الحنيف ، دون أن يكون في هذا المأخذ على الكاتب قصد إلى النيل من حريته وشخصه ، غير أن الحرية بمعناها المستقيم لا تبيح له أن يقترف ما اقترفه .

على أن أصحاب الاتجاه المحافظ شرعوا يواجهون تلك الدعوات بوعي ، ويخوضون صراعاً فكرياً يصل الماضي بالحاضر ويستعد للآتي .

وفي تقديري أنهم من خلال مقالاتهم قد استطاعوا أن يقنعوا الرأي العام بعظمة ما لدينا من تراث وجدارته بأن يكون هو الأساس المتين الذي يمكن أن نبني عليه ، ونضيف إليه ما دمنا قادرين على إثبات وجودنا معتدِّين بشخصياتنا .

- وهذا نموذج لمصطفى صادق الرافعي أحد رموز الاتجاه المحافظ من مقال بعنوان : " حقيقة الإسلام " .

يقول مصطفى صادق الرافعي [١] :

" لا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله ، كما تصب المادة في المادة ، لتمتزج بها فتحولها ، فتحدث منها الجديد ، فإذا الإنسانية تتحول وتنمو ، وإذا هو ﷺ وجود سار فيها ، فما تبرح الإنسانية تنمو به وتتحول .

(١) مجلة الرسالة : عدد ١٥ أبريل ١٩٣٥ .

كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه ، يتحيفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر ، فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد . بدأت به الدنيا تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان عن ذاته ، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته ، فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين : أحدهما فتح له طريق المجيء من الجنة . والثاني : فتح الله له طريق العودة إليها . كان في آدم سر وجود الإنسانية ، وكان محمد ﷺ سر كمالها .

ولذا سمي الدين بالإسلام ، لأنه إسلام النفس إلى واجبها ، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ...

ثم يقول في خاتمه مقاله (١):

" وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء بها الإسلام ليهدي الإنسانية إليها حالة السلام الروحاني الذي يحمل حرب الدنيا المهلكة حرباً خارج النفس لا في داخلها ، ويجعل ثروة الإنسان مقدورة بما يعامل الله والإنسانية عليه ، فلا يكون ذهبه وفضته إما كتب عليه ، ضرب في مملكة كذا ، ولكن ما يراه هو قد كتب عليه : صنع في مملكة نفسي . ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي للأخذ فحسب ، بل للعطاء أيضاً ، فإن قانون المال هو الجمع ، أما قانون العمل هو البذل " .

- صدق من قال : " الأسلوب الرجل " . إن من يقرأ المقال السابق يسلِّم أنه أمام نوع من الأسلوب ساحر البيان ، عالي المقام ، جميل الإيقاع ، لكاتب سامٍ في التفكير ، شريف في معانيه ، عميق في مغازيه ، مكثف في أبعاده ، بعيد كل البعد عن تكلف البديع ، يبدو نموذجاً متفرداً لا يكاد يخطئه القارئ لما له من ذوق ومنهج فني اختص به " هيأه إلى أن يفهم القرآن ، ويعرف سر إعجازه في كل آية ، وكل كلمة من آية ، وكل حرف من كلمة ... وحسب

(١) مجلة الرسالة : عدد ١٥ أبريل ١٩٣٥ .

القارئ أن يعود إلى تفسير الرافعي ليرى نموذجاً من هذا الذوق الفني العجيب في فهم اللفظ ودلالة المعنى ، يقابله وجه آخر من هذا الذوق في اختيار ألفاظه " [١].

جعل المندفعون نحو الغرب يقللون من غلوائهم ، ويضبطون إيقاعهم نحو كل ما هو غربي ، ويقتربون من نقاط الإشراق وعصور الازدهار إبان الحضارة الإسلامية والعربية ، فرأينا " الدكتور هيكل " يكتب عن " حياة محمد " ﷺ ، كما كتب في " منزل الوحي " وكان قد نشر ذلك في مقالات متتابعة ، ثم جمعها في الكتابين السالفين ، في حين كتب " الدكتور طه حسين " كتابه " على هامش السيرة " [٢] الذي كان قد نشره في مقالات من قبل ، ثم تبعهم " العقاد " يكتب " العبقريات الإسلامية " الرائعة يجلو فيها أمجاد الحضارة العربية الإسلامية ، ويزداد إيماناً بصلاحها في كل حال .

وإذا كان " هيكل " و " طه حسين " و " العقاد " أبرز من يمثل التيار المندفع نحو الغرب ثم التحول إلى الاعتدال ، فإن " الرافعي " و " عبد الوهاب عزام " و " الزيات " أبرز من يمثل اتجاه الأصالة الصامد الذي استطاع أن يفلَّ شطط تلك الدعوات ويروِّض فكر أصحابها إلى الاستقامة ، ليشهد فن المقال مع ذلك في نهاية الأمر تطوراً ونضجاً في الرؤية والأداة حيث أصبح لدينا أعلام واعون واثقون بإمكاناتهم قد استطاعوا أن يرتقوا بهذا الفن إلى أن يحيا في عصره الذهبي .

وقد أثمر ذلك أن حرص الكتاب على أن تظل مقالاتهم التي نشروها في الصحف والمجلات بين أيدي القراء من الأجيال التالية ، فجمعوها وأصدروها في كُتُب كان لها دور بارز في النهوض بلغتنا العربية وفنونها الأدبية ، وحياتنا الفكرية ، ومنها " النظرات والعبرات : للمنفلوطي " ، " وحي القلم : للرافعي " ،

---

(١) مصطفى صادق الرافعي للدكتور كمال نشأت ص٨٤ ، عدد ٨١ سلسلة أعلام العرب .

(٢) رغم تحول طه حسين إلى الاعتدال إلا أنه لم يتخلص من افتتانه بالغرب نهائياً ، حيث عاد وأخرج كتابه الذي سبقت الإشارة إليه "مستقبل الثقافة في مصر " ١٩٣٨م .

" حديث الأربعاء : لطه حسين " ، " الفصول : للعقاد " ، " في المرآة : للبشري " ، " فيض الخاطر : لأحمد أمين " وغيرهم كثير ممن كان نتاجهم في فن المقال نماذج راقية أعادت للغة رونقها في بيانها ، وسحرها في تأثيرها الذي يعمل على جذب الناشئة وغيرهم إلى تشرُّب ، وتذوق بيان لغتنا التي قال عنها أفصح من نطقبها ﷺ : " إن من البيان لسحراً " .

الطور الخامس :

تطور المقال من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ إلى يومنا هذا

شهدت هذه المرحلة أحداثاً سياسية هامة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م . تمثل كل حادثة منها حقبة مهمة على امتداد هذه المرحلة المعاصرة حتى يومنا الذي نحياه . ومن هذه الأحداث :

- عدوان إنجلترا وفرنسا وإسرائيل ١٩٥٦م .
- نكسة يونيو ١٩٦٧م .
- انتصار رمضان ١٣٩٣هـ . أكتوبر ١٩٧٣م .
- عقْد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل في كامب ديفيد .

فبعد قيام ثورة يوليو تمكنت البلاد من إجلاء المحتل ، وإنهاء عهد الملكية ، وحدثت تغيرات جذرية على كل المستويات ، على أن تلك التغيرات لم تكن لتحدث في حياتنا الأدبية بتلك الصورة الطفرة ، ولاسيما (فن المقال) .

صحيح أن تغيراً ، بل تغيرات طرأت على كتابة فن المقال في الموضوعات والأساليب ، لكنها في معظمها تمثل امتداداً لمرحلة الرقي والازدهار ، حيث إن عدداً من أعلام هذا الفن قد امتد بهم العمر بعد الثورة وقتاً طال أو قصر ، أمثال : محمد لطفي جمعة الذي توفي سنة ١٩٥٣م ، وأحمد أمين الذي توفي سنة ١٩٥٤م ، وعبد الوهاب عزام توفي سنة ١٩٥٨م ، وطه

حسين توفي سنة ١٩٦١م ، وأحمد لطفي السيد توفي سنة ١٩٦٣م ، والعقاد توفي سنة ١٩٦٤م ، أما الزيات فقد توفي سنة ١٩٦٨م .

كما أن مجموعة ممن تتلمذوا على فكر أولئك الأعلام وتأثروا بهم قد حملوا الراية يكتبون مقالاتهم ، لا على سبيل التقليد المحض ، بل على سبيل التطوير ومتابعة مسيرة فن المقال ومعاناة سبل إبداعه بكل ما يطرأ لها أو عليها من تغير في الظروف ، وما ينتج عن ذلك من تأثير إيجاباً أو سلباً .

ومن أولئك الكتاب : محمد سعيد العريان ، وأحمد زكي ، ويوسف السباعي ، ويحيى حقي ، وتوفيق الحكيم ، وخالد محمد خالد ، والشيخ محمد الغزالي ، وعبد القادر حمزة ، و د. زكي نجيب محمود ، د. مصطفى محمود ، وأحمد الصاوي ، ومصطفي أمين ، وعلى أمين ، وصلاح منتصر ، وجمال حماد ، وأنيس منصور ، وأحمد بهجت ، وفهمي هويدي ... إلخ

في هذه المرحلة توثقت وتأكدت سمات رُقيٍّ فن المقال الذي عاش عهده الذهبي في المرحلة السابقة . يقول " الدكتور مصطفى محمود " : " لا بد أن نحس بأكبر قدر من العلم في عصر اللغة الموضوعية المختصرة البليغة الواضحة "[١] .

إنه بهذا يؤكد أن لغة المقال قد نضجت وازدهرت حتى غدا هذا العصر الذي نعيشه يوسم بأنه عصر اللغة ، ثم أردف مفصلاً سمات لغة العصر على النحو الآتي :

- الاختصار والإيجاز : ويكون بالتخلص من الحشو الذي لا يلائم عصر السرعة والمعلومات الغزيرة ، والاحتفال بالحقائق العليمة .
- الوضوح والسهولة : ويتحقق ذلك بالبعد عن الغموض والتعقيد .

(١) إبراهيم عبد العزيز : رحلة في عقول مصرية (حوار مع د. مصطفى محمود - ص ٣٨٩) .

- البلاغة : ولا يقصد بها البلاغة الاصطلاحية ، ولكن يقصد الجمال اللغوي والأدائي الجذاب للمتلقي ، والمؤثر دون تكلف أو جمود .
- الموضوعية : ويقصد بها أن يكون الأسلوب معتدلاً ومتوازناً بين العناصر السابقة وغيرها مما يتصل بفن المقال وتنوعه على مستوى الشكل والموضوع ...

وهذا نموذج لفن المقال في هذه المرحلة للدكتور " زكي نجيب محمود " من مقال له عنوانه : " الله في حياة الإنسان في فكره وسلوكه ".

يقول " الدكتور زكي نجيب محمود "[١] :

" إذا استثنينا عدداً من الرجال قد لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة ، منذ عرفت الدنيا فكراً ومفكرين ، فتستطيع القول على سبيل اليقين ، لا على سبيل الظن بأن صحائف الفكر البشرى ، لم تشهد إنساناً بغير عقيدة في إله . وكل ما حدث من أوجه الاختلاف في هذا الصدد ، فهو منحصر في الصورة التي تصور بها هذا الإنسان أو ذاك الله كيف يكون ... ؟

حتى الفلاسفة المعاصرون الذين تغلب عليهم النزعة الطبيعية التي ملخصها أنه ليس وراء هذه الطبيعة شيء ، فلا يفوتهم أن يتصوروا الله على هذه الخلفية نفسها بصورة ملائمة لمذهبهم كأن يقولوا مثلا : إنه هو بمثابة القوانين الخافية عن البصر ، والتي تنبثُّ في الكون فتنظمه ... ولكن فليقولوا في الأمر ما يقولون ، لأن النتيجة في النهاية هي اختلاف في التصور ، لا اختلاف في أساس الاعتقاد بوجود الله " .

ثم يقول[٢]:

---

(١) راجع المقال بمجلة الهلال ص ١٨ : ٢١ ، عدد ابريل ١٩٧٩ .

(٢)راجع المقال بمجلة الهلال ص ١٨ : ٢١ ، عدد ابريل ١٩٧٩ .

" إننا إذا تأملنا صفة الحياة عندما نقول : الله هو الحي ، أو صفة العلم عندما نقول : الله هو العليم ، أو صفة الإرادة عندما نقول : عن الله " علام لما يريد " أو صفة الرحمة عندما نقول : الله هو الرحيم ، أو صفة العدل عندما نجد أن العدل اسم من أسماء الله تعالى ، وهكذا إلى آخر تلك الأسماء المباركة .

فإننا إنما نشير ضمنا إلى الأهداف العليا التي يجب أن يتغياها الإنسان بسلوكه ...

ونقف عند صفة الحياة وحدها لنتأمل ما يجب على الإنسان أن يفعله ليكون "حياً " بالمعنى المطلوب والمتضمن في ذلك الاسم من أسماء الله الحسنى .. بالطبع ليس المقصود هو حياة الطعام والشراب والنسل ، ولا هو حياة الزراعة والصناعة والتجارة ، ولا هو أي وجه من أوجه الحياة التي ينشط بها الإنسان ، ويكاد ينشط بمثلها الحيوان أيضا ، لكننا نعني بالحياة هنا ، حياة الوعي والإدراك والتعقل ، وما إلى ذلك من صفات لأنها هي الصفات المتضمنة عندما نقول : إن الله هو الحي ، أي أنه هو المحيط بكل شيء علماً وإدراكاً ونوراً ... " .

ــ لكل مقال فكرة . ويشترط النقاد لجودة أيِّ مقال أن تكون فكرته جيدة وواضحة . وليس هناك أجود وأجلّ من فكرة المقال السابق التي عبر عنها الكاتب في أجلى ما يكون التعبير الذي جاء دالاً على مدى تمكن الكاتب من الفكرة والإحاطة بها من خلال عكوفه عليها ، يتفهم أبعادها مستعيناً بسعة ثقافته ومعارفه وتبحره في اطلاعه .

ولذا فقد وُفِّق غاية التوفيق في تقديمه فكرته للقارئ خالصة نقية بلا شوائب ، كأنها شمعة أضيئت من مداد زيتونة لا شرقية ولا غربية ، فلا عصبية ولا شطط ، إذ يستقي فلسفته في النهاية من نور الإسلام الذي لا يفرق بين إنسان وإنسان مهما اختلفت الأجناس والألوان ، أو تباعدت الديار والأمصار .

وقد عبر الكاتب عن ذلك كله في سهولة ويسر ، وسلامة وتمكُّن ، وحسن ترتيب يسلم في النهاية إلى نتائج مطمئنة .

إنه يقدم لنا نموذجاً لما وصل إليه فن المقال في العصر الحديث من رقي ونضج وازدهار ، يقف به على قدم المساواة مع أعلى النماذج المقالية في العالم ، إن لم يكن في القمة .

على أنه لا يفهم مما سبق أن الخط البياني لازدهار فن المقال ظل على صعوده كنتاج طبيعي لما بعد الثورة ، فسرعان ما أفاق كتاب المقال على صدمة قيود سلطتها ، فقد بات على الصحافة منذ عام ١٩٥٢م " رقيب عسكري ورقيب مدني .. وكان للصحفيين نطاق معين يتحركون في حدوده " (١).

وإذا حاد كاتب عن النطاق المحدد حدث مالا تحمد عقباه ، فقد تصادر الصحيفة أو المجلة ، ويعتقل الكاتب ، " فانعكس الخطر في انعدام الثقة في النفس أولاً ، وانعدام الحرية ثانياً ليس على المستوى الصحفي فحسب ، بل على جميع المستويات " (٢).

إن تقييد حريات الكتاب جعل الحقيقة تغيب عن الشعب أو يغيب هو عنها حتى حلت الكارثة ، إذ لم يفق الجميع إلا مع غداة نكسة سنة ١٩٦٧م .

إننا لا نبالغ إذا قلنا : إن فن المقال قد تعثرت مسيرته بعد الثورة فترةً غير هينة ، ولذا فإن الشيخ محمد الغزالي يعترف - بعد ربع قرن من قيام الثورة - بأن النهضة الأدبية التي تحققت على أيدي الرواد قبل الثورة لم تتابع نموها المأمول ، إذ يقول :

---

(١)رحلة في عقول مصرية (حوار مع صبري أبو المجد - ص ٤٥٢) .

(٢)المرجع السابق (حوار مع صبري أبو المجد - ص ٤٥٢) .

" هل نستطيع أن نفعل في ميدان الأدب كما فعل قادة الأدب منذ ربع قرن واستطاعوا أن يصنعوا نهضة في الأدب العربي ذكرتنا بأيام ابن المقفع والجاحظ ، وأيام القرن الثالث والرابع الهجريين إبان ازدهار الأدب العربي ؟

هل نجد الآن من يكونون قدوة للشباب في الأداء الراقي والديباجة المشرقة ، وفي الأسلوب السهل ، وقبل ذلك كله في الغايات الشريفة ، وفي المعاني الحسنة النقية التي ترتبط بكلامهم ومقالاتهم ؟ "[١] .

إن العبرة والمعول عليه في قيام نهضة ليس بقيام الثورات وترداد الشعارات على نحو ما يقول " توفيق الحكيم " عن الثورة عقب قيامها : " استبشرنا خيراً بها فعلاً ؛ لأن الذين قاموا بها كانوا شباباً ، ولكنهم لم يمارسوا ما يقال إنه : الديمقراطية ... ثم حدث أن تغير النظام ، فإذا بالنظام الجديد ينقلب إلى ديكتاتورية "[٢].

ثم يقرر الحكيم أن السبيل إلى النهضة لا يتمثل في النظام الاشتراكي أو الرأس مالي أو غير ذلك ، بل يتمثل في شئ واحد : " الحضارة " والحضارة هي التي أنقذت العالم الغربي من انهيار سريع ، حيث ظهر لديهم مفكرون عظام استطاعوا أن يبنوا حضارة عظيمة كونت الفرد تكويناً متيناً ... وأخرجتهم من الجهل والظلام "[٣] .

وهل من حضارة غير حضارة الإسلام هي التي أنقذت أوروبا حين أخذت بأسبابها ؟

فمتى نأخذ نحن بأسباب حضارتنا الإسلامية التليدة حتى نؤسس لقيام حضارتنا الإسلامية الحديثة ؟

---

(١)السابق (حوار مع الشيخ الغزالي - ص ٣٣٧ ، ٣٣٨) .

(٢)السابق (حوار مع توفيق الحكيم - ص ٤٥) .

(٣)السابق (حوار مع توفيق الحكيم - ص ٤٥) .

أم أننا سنظل - دهراً الله أعلم بمداه - نترك ثمرنا يجنيه غيرنا ، ولا نعرف كيف نجني جهدنا ؟!!!

على أن سنة الحياة التي تقتضي أن دوام الحال من المحال لم تكن لتدع أساليب التعويق والتضييق دون أن تتفتح نوافذ للأمل والحرية ، فقد لاحظنا انتفاضة بعد انتفاضة في كتابة فن المقال حين كانت تتفتح نوافذ للحرية ، حيث ظفرنا بنشاط مقالي ملحوظ ، إذ أُنشئت صحف ومجلات جديدة .

ولذا فقد غدونا نشاهد زخماً في تنوع فن المقال في ألوان من المساجلات والمعارضات والمناظرات الصحفية والمعارك الفنية في مختلف القضايا السياسية والثقافية والبيئية ، وغير ذلك من المواجهات بين أصحاب المذاهب والاتجاهات الفلسفية والأدبية ، والقضايا ذات الموضوعات العديدة والمتشعبة .

الخـــاتمـــة

حمداً لله على تتمة نعمته ، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسله ، ورضي الله عن آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان و إتقان ..

وبـــــــعـــــــد

فإن هذه الدراسة على ما بذل فيها من جهد عبر هذا التطواف التاريخي ، وما قارنه من معالجة وتحليل للنصوص والآراء ونقدها ، وإبداء الرأي رغبة في تقديم رؤية جديدة أو إضافة جديرة بأن تثمر وتسفر عن نتائج مرضية ، يمكننا أن نجليها على النحو الآتي :

ــ فن المقال ذو جذور أصيلة في أدبنا القديم من خلال مظانه الثرة في معانيه الأولى التي لا تنفصل عن مفهومه الأدبي والفني في مراحل التطور والنضج ، وذلك قبل اختراع الطباعة بقرون طويلة ..

ــ إذ كان من الأجانب من ينكر إنكاراً مطلقاً وجود نثر فني بما في ذلك الفن المقالي في أدبنا القديم ، فإن منهم المنصف الذي يعترف بوجود ما كان يقوم بالوظيفة التي نعرفها في زماننا للمقال الصحفي ، وإن جاء في صورة بذور لموضوعات بدائية ساذجة كما هو الشأن في الآداب غير العربية في أطوار بداوتها عبر العصور القديمة .

ــ بمطالعة عدد من تعريفات المقال لدى أبرز الغربيين أمثال " مونتاني " و " باكون " يتجلى لنا أنها لا تبعد كثيراً عما تحقق لدينا من نماذج مقالية لا تكاد تحصى في أدبنا القديم .

ــ تحقَّق وجود المقال في أدبنا القديم من خلال وجوده في صور فنية عرفت بالرسائل أو الفصول التي زخرت بها أمهات الكتب على نحو لا يقترب من حدها الاصطلاحي فحسب ، بل على نحو يعبر عن مقصودها وغايتها حسب معطيات مصطلحها حديثاً .

ــ وما تحقق قديماً من نثر مقالي يعد إنجازاً و إعجازاً حسب ظروف العصور القديمة المتواضعة في إمكاناتها قياساً بما أتيح للعصر الحديث من وسائل ومنجزات مذهلة .

ــ بعد أن أشرقت شمس الإسلام الذي أسس لحضارة إنسانية شاملة شهدت فنون الكتابة توسعاً وتنوعاً ورقياً على نحو ما رأينا من نماذج حملت كثيراً من العناصر المقالية التي تصل إلى حد التكامل الفني كما في رسالة عمر ﷺ في القضاء .

ــ في عصر بني أمية واصل فن النثر مقالياً تطوره ورقيه لدرجة يضرب بها المثل ، إذ يصل إلى حد التنظير وإرساء الأصول التي ينهض عليها هذا الفن لغة وأسلوباً وموضوعاً وإطاراً أو بناء فنياً .

ــ في العصر العباسي واصل فن النثر المقالي من خلال الرسائل والفصول التي زخرت بها أمهات الكتب تطورَه ورقيه ونضجه لدرجة الثراء والتنوع ، حيث جعل يبحث لنفسه عن أُطُر تعبر عن هذا الثراء الذي جاوز حدود الإتقان الإبداعي متلبساً بآفاق التكلف البديعي ، فقد تجلى من خلال تلك الفصول أو الرسائل نموذجاً للمقالة الحديثة في أدق ما تكون عليه من كمال فني في بنائها وأسلوبها كما في مقالة الجاحظ عن " الحاسد والمحسود " ، كما بدت نماذجه في بعض الأحيان تحفاً فنية مرصعة بأنواع البديع على نحو ما رأينا في رسالة القاضي الفاضل إلى الخليفة احتفالاً بانتصار صلاح الدين على الصليبيين .

ــ في العصر المملوكي احتفظ الفن المقالي بوجوده الراقي الخالد من خلال الموضوعات التي صاغها الكتاب في صور لا تبعد كثيراً عن سمت المقال الحديث وخصائصه ، اللهم إلا عامل الزمن ، وظروف كل عصر ، ومُكْنته ، وهو ما تجلى من خلال المقال أو الفصل الذي أوردناه

لابن خلدون في مقدمته بعنوان "وجه الصواب في تعليم العلوم وطريقه إفادته " .

ــ والصنعة التي أشرنا إلى وجودها في الفن المقالي في أطراف من العصر العباسي ، صنعت بهذا الفن ما صنعت ، حتى بلغ الأمر حد التصنع ، بل التكلف الذي بات الكتاب يشغلون به على حساب جوهر الفن حيث بدأ المنحنى الفني يهبط مؤشره إلى دركات من الضعف على نحو ما ذكرنا لمحي الدين بن عبد الظاهر في رسالة له .

ــ والضعف الذي ألمَّ بهذا الفن المقالي في أطراف من العصر المملوكي بات طابعاً عاماً في العصر العثماني الذي جمدت فيه الكتابة الفنية وتخلفت تخلفاً شديداً .

ــ بعد ظهور الطباعة وانتشار الصحافة أصبح من اليسير على القراء أن يتلقوا ألواناً وأنواعاً غزيرة من المقالات التي طفقت تنتشر بصورة متصاعدة .

ولم تكن هذه المقالات في تنوعها على درجة واحدة من الجودة والنضج الفني ، فقد بدا هذا الفن إبان ابتعاثه في بداية العصر الحديث ساذجاً ، بل لا يكاد يختلف عما كان عليه من جمود وتخلف إبان العصر السابق ، ثم تطور ونضج حديثاً حتى وصل إلى درجات عظيمة من الرقي والازدهار .

ــ في الطور الأول من العصر الحديث لم تمثل حركة تطور فن المقال ، سوى انتعاش هذا الفن بعض الانتعاش ، فقد كانت الطباعة في بداية مهدها ، كما أن الصحافة لم يكن قد تهيأ لها الانتشار .

ــ في الطور الثاني من العصر الحديث قطع فن المقال شوطاً لا بأس به نحو التطور و النهوض في محاولة دائبة ومتطلعة إلى الرقي بالتخلص من الآفات اللفظية . فقد كان " لمحمد عبده " وأستاذه " الأفغاني " دور كبير في ترسُّل اللغة وانطلاقها في قوة وحيوية .

ــ في الطور الثالث من العصر الحديث أثمر دور رواد الإصلاح والنهوض في بروز طائفة من الكتاب ذوى الأقلام المناضلة يبعثون الأمل في النفوس ، ويؤثرون في الوجدان ، ويبثون روح الحرية في مقالات اجتماعية إصلاحية وحماسية ثائرة .

وقد كان طائفة من أولئك الكتاب يدعون إلى إحياء فكرة الخلافة الإسلامية ، ولذا كانوا يرفضون فكرة القومية ، وغيرها من الأفكار التي تفصلهم عن غايتهم .

على حين ظهر اتجاه آخر في كتابة فن المقال من خلال طائفة من الكُتــاب الذيــن راحوا ينادون بأنه لا ولاء إلا لمصر ، وأن مصر للمصريين . وقد كان رواد هذا الاتجاه يرون أن فكرة الخلافة الإسلامية غير ممكنة لما كان عليه الخلفاء الأتراك من فساد ، ولذا جعلوا يولُّون وجوههم شطر البلاد التي نشأت فيها القوميات ، وازدهرت فيها مدنيات حديثة ، ومن هنا تلونت مقالاتهم بطابع غربي أوربي واضح ، فنادوا في مقالاتهم : بفكرة الوطنية بمفهوم عقلي مصلحي ، لا بمفهوم وجداني حماسي . كذلك دعوا إلى تفسير نصوص الدين بما يلائم الحضارة ويتفق مع التطور .

- ومهما يكن من أمر فقد شهد هذا الطور تطوراً كبيراً على مستوى فن المقال الذي احتوى تلك الظروف ، وعبَّر عنها في أحوالها المختلفة ، من خلال طرق فنية واضحة .

ــ في بداية الطور الرابع من العصر الحديث عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى حقق أصحاب الاتجاه (المتفرنج) تفوقاً ، واختفت فكرة الخلافة الإسلامية ، وتحولت إلى فكرة الجامعة العربية ، ولذا شرع أصحاب الاتجاه (المحافظ) يواجهون في مقالاتهم الأفكار المسرفة في التغرب حتى جعل المندفعون نحو الغرب يقللون من غلوائهم ، ويضبطون من إيقاعهم نحو كل ما هو عربي ، ويقتربون من نقاط الإشراق وعصور الازدهار إبان الحضارة الإسلامية والعربية ، ليشهد فن المقال مع ذلك تطوراً ونضجاً في الرؤية والأداة ، حيث أصبح لدينا أعلام واعون واثقون بإمكاناتهم التي مكنتهم من أن يرتقوا بفن المقال إلى أن يحيا في عصره الذهبي .

ــ في بداية الطور الخامس من العصر الحديث بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م حدثت تطورات على كتابة فن المقال في الموضوعات والأساليب ، لكنها في معظمها تمثل امتداداً لمرحلة الرقي والازدهار ، وفي هذه المرحلة توثقت وتأكدت سمات الرقي اللغوي والمقالي التي وسم بها العصر في بداية هذا الطور حتى إنه ليصدق عليه بنسبة كبيرة : إنه عصر اللغة .

ولذا فإن فن المقال قد حقق من الرقي والنضج والازدهار ما يقف به على قدم المساواة مع أعلى النماذج المقالية في العالم .

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولاً : ﴿ القرآن الكريم ﴾ :

وهو كلام الله المنزه عن كل نقص وعيب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وهو معجزة الإسلام الخالدة .

ثانياً : من صحيح كتب الحديث الشريف :

ـ محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، بيروت ٢٠٠٢م .

ـ أحمد بن حنبـــــــــــــــــــــــــل : المُسند ، دار الحديث ، القاهرة ٢٠٠١م .

ـ محمد بن عيسى الترمـــــــــذي : سنن الترمذي ، دار الكتب العلمية ، القاهرة ٢٠٠٠م .

ثالثاً : من كتب تفسير القرآن الكريم :

ـ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، دار الحديث القاهرة ١٤١٥هـــــ - ١٩٩٤م .

رابعاً : المصادر والمراجع اللغوية والأدبية :

- د. إبراهيـــــــــم إمام : دراسات في الفن الصحفي ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٢م .

ـ إبراهيم عبد العزيز : رحلة في عقول مصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ .

ـ ابن الأثيـــــــــــــــــــــــر : المثل السائر ، تحقيق أحمد الحوفي ود.بدوي طبانة ، نهضة مصر (د.ت).

ـ ابن خلـــــــــــــــــــــدون : مقدمة ابن خلدون ، طبعة دار الشعب ، القاهرة (د . ت) .

ـ أحمد أميـــــــــــــــــن : فجر الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٩م .
ـ د. أحمد خليـــــــــــــل : في الأدب العربي الحديث ، ط الرسالة ، دمنهور ١٩٨٨م .
ـ أحمد شوقـــــــــــــــي : أسواق الذهب ، ط دار الهلال ، القاهرة ١٩٣٢م .
ـ د. أحمد هيـــــــــــكل : تطور الأدب الحديث في مصر ، من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ص ٧٠ ، ط خامسة ، دار المعارف ١٩٨٧ م .
ـ الثعالبـــــــــــــــــــــي : يتيمة الدهر ، دار الكتب العلمية ، القاهرة ١٩٨٣م .
ـ الجاحـــــــــــــــــــــظ : البيان والتبيين ، مكتبة الخانجي سنه ١٩٩٨م .
ـ الجاحـــــــــــــــــــــــــــظ : الرسائل الأدبية للجاحظ ، ط٢ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ٢٠٠٢م .
ـ الجهشيـــــــــــــــــــــــــــاري : الوزراء والكتاب ، ط الحلبي١٩٣٨م.
ـ جورجي زيـــــــــــــــــــــــدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الحياة ١٩٨٣م .
ـ الشيخ حسن العطـــــــــــــــار: إنشاء العطار ، دار الطباعة العامرة ، القاهرة ١٢٧٧هـ.
ـ رفاعة الطهطـــــــــــــــــــاوي : تخليص الإبريز ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة٢٠٠٠م .

ـ د. زكى مبـــــــــــــــــــارك : النثر الفني ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٤م .
ـ الزمخشـــــــــــــــــــــري : أساس البلاغة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م .
ـ سلامة موســـــــــــــــــــى : اليوم والغد ، المطبعة العصرية ، القاهرة ١٩٢٧م .
ـ د. السيد مرسي أبو ذكـــــري : المقال وتطوره في الأدب المعاصر ، دار المعارف ١٩٨٢م .
ـ سيد قطـــــــــــــــــــــب : النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، دار العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٦م.
ـ د. شوقي ضيـــــــــــــــــف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط خامسة دار المعارف ، مصر
ـ د. طه حسيــــــــــــــــــن: مستقبل الثقافة في مصر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٦م.
ـ عبد الرحمن الرافعـــــــــــي : مصر والسودان من أوائل عهد الاحتلال البريطاني ، القاهرة ١٩٤٢ .
ـ د. عبد الرحمن عبد الحميد : معالم المقال الأدبي والصحفي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ٢٠٠٨
ـ د. عبد العزيز شـــــــــــرف : أدب المقالة في الحضارات الاتصالية ، السمعية ، التدوينية ، الطباعية، الصحفية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ م.
ـ د.عبد اللطيف حمـــــــــزة : أدب المقالة الصحفية في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ــ د.عطاء كفـــــــــــــــــــــــــــــــــافي : المقالة الأدبية وظيفتها في العصر الحديث دار هجر ، ط ١ ، القاهرة ١٩٨٥م .

ــ علي الجنـــــــــــــــــــــــــــــدي : في تاريخ الأدب الجاهلي ص ٢٦٠ ط دار المعارف ١٩٨٤ ، القاهرة .

ــ د. عمر الدسوقـــــــــــــــــــــــــــي : دراسات أدبية ، طبعة نهضة مصر (د . ت) .

ــ العقـــاد : يسألونك ، دار الكتاب العربي لبنان ١٩٦٨ م .

ــ د. عمر الدسوقـــــــــــــــــــــــــــي : دراسات أدبية ، طبعة نهضة مصر .

ــ القلقشنـــــــــــــــــــــــــــــــــــدي : صبح الأعشى ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٢م .

ــ كارل بروكلمـــــــــــــــــــــــــــــان : تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف ، مصر .

ــ د. كمال نشـــــــــــــــــــــــــــــــأت : مصطفى صادق الرافعي ، عدد ٨١ سلسلة أعلام العرب ، دار الكاتب العربي ، مصر ١٩٦٨م .

ــ محمد حميد الله الحيدر آبادي : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ــ د. محمد أحمد العـــــــــــــــــزب : عن اللغة والأدب والنقد ، ط أولى ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٠م .

ــ د. محمد مصطفى هـــــــــــــدارة : دراسات ونصوص في الأدب العربي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٨٥م .

ـ د . محمد منـــــــــــــــــــــدور : الأدب وفنونه ، دار نهضة مصر ٢٠٠٦م .
ـ محمد الههيـــــــــــــــــــــاوي : الطبع والصنعة ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٥٨هـ .
ـ د. محمد يوسف نجـــــــــــــــم : فن المقالة، ط رابعة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦ م.
ـ مصطفى لطفي المنفلوطـــــــــــي : النظرات ، ط١ ، لونجمان ١٩٩١م .
ـ المعجم الوسيـــــــــــــــــــــط : إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط٣ ،١٩٩٨م .
ـ النابغة الذبيانـــــــــــــــــــي : ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق شكري فاضل ، بيروت ١٩٨٦م .

خامساً : المجلات والدوريات :

ـ الجريـــــــــــــــدة : عدد أول فبراير سنة ١٩٠٨م .
ـ مجلة الرسالـــة : عدد ١٥ أبريل ١٩٣٥ .
ـ مجلة السياسة : عدد ١٤ أغسطس ١٩٢٥م .
ـ مجلة الهـــــلال : عدد ابريل ١٩٧٩ .